عندما يعصف الحبّ

عنوان الكتاب : عندما يعصف الحبّ

الموضوع : رواية

تأليف : يمان ياسرجي

قياس الصفحة : ١٥*٢٢

الطبعة الأولى : ٢٠١٧

يطلب من :

للتواصل مع المؤلفة :

هاتف جوال ٠٩٣٣٥٤٣١٣٨- ٠٩٦٨٥١٤٨٢٠

جميع الحقوق محفوظة

عندما يعصف الحبّ

رواية

يمان ياسرجي

الإهداء

.. إلى كل قلبٍ.. يعرف كيف يحبّ..

مع الحبّ والكلمات نرحل..

نرحل في رحلةٍ عقليةٍ على متن جناح العاطفة..

رحلةٍ تتمازج فيها أدوار العقل والقلب، إلى أن يصطبغ كلٌّ منهما بتلاوين الآخر..

يتناصفان المسؤولية..

ويتقاسمان أمانة الموقف، ومؤونة اتخاذ القرار..

يرشف العقل حلو رحيق الحبّ..

ويطمئن القلب في سراديب البصيرة.

يمان

.. تحليقٌ صغير..

ما قبل الرواية

خُلقَ الكون بالحبّ.. وللحبّ..

أبدعه رب القلوب ليكون بآياته المبهرة.. برًا وبحرًا وجوًا.. دليلاً إليه وشاهدًا عليه.

أحبّ الله أن يُعرف..

هو السر إذًا من وراء هذا الخلق.. خلقِ الأكوان وإبداعِ تكوينها وكائناتها على أروع مثال..

جبالٌ.. محيطاتٌ.. مجراتٌ.. كائناتٌ.. وموجوداتٌ لا حصر لها..

خلَقَ الله آدم لهذه الأرض.. يستخلفه فيها.. ويستعمره..

وخلق حواء لآدم.. يأنس بها ويسكن إليها، وجعل بينهما مودةً ورحمة وفضلاً.. وجعل من نسلهما بشرية تتوارث الأرض جيلاً بعد جيل..

بالحبّ بدأ كل شيء.. وبحرفين لا غير.. تحولت المشيئة الإلهية إلى كونٍ يضجّ بالحياة.. وبالألوان.. وبالأنغام..

الحبّ ليس حكايةً فرديةً أو قضية خاصة..

إنه سدى ولحمة النسيج البشري من أوله إلى منتهاه.. والشبكة العنكبوتية الحية التي تحتوي المزيج الإنساني من أقصاه إلى أقصاه..
ما كان أبدًا ترفًا يُستغنى عنه، ولا أمرًا هامشي الأهمية..
عماد الوجود، تحضّ عليه جميع الديانات السماوية.. وتدور حوله نقاشات الفلاسفة، وتهويمات الشعراء، وحكايات أصحاب الأقلام.. وأعمال الفنانين.. و.. عفوية عيش البسطاء.
في الكتب السماوية دعوات لتداول الحبّ بين الناس، على أعلى مستوى من الرقي في التعامل، وأعذب طريقة في التواصل وحفظ الفضل.
ففي الوصايا العشر من التوراة.. العهد القديم.. " كانت الوصية الأولى والعظمى: أن تحبّ الرب إلهك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ فكرك، والثانية مثلها: تحبّ قريبك كنفسك.. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء ".
وكذلك الإنجيل.. العهد الجديد.. يدعو ": هذه هي وصيتي أن تحبّوا بعضكم بعضًا كما أحببّتكم، ليس لأحدٍ حبّ أعظم من هذا.. أن يضع نفسه لأجل أحبّته.. وصية أخرى مجموعة في هذه الكلمة:أن تحبّ قريبك كنفسك.. فلنعكف إذًا على ما هو للسلام، وما هو للبنيان بعضنا لبعض ".

والقرآن.. الرسالة الأخيرة إلى البشرية جمعاء.. تحدثت آياته بلغة الحبّ مطولاً..

الله حبّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا.. وما أكثر الآيات التي يخبر الله فيها عمن يحبّ من شرائح المجتمع، وأصناف الناس..

ذكر غير مرة، وفي طرحٍ مختلفٍ لمعنى مختلفٍ كل مرة، أنه يحبّ من البشر التوابين.. المتطهرين.. المتقين.. الصابرين.. المحسنين.. المقسطين.. المتوكلين..

كما ألمح إلى أنه لا يحبّ.. (ولم يقل يكره.. تجنبًا لما تبثه كلمة الكره من ظلال سلبية وإسقاطاتٍ منفّرة) المعتدين.. الظالمين.. المفسدين.. المسرفين.. المستكبرين.. الخائنين..

كذلك اعترف القرآن بالحبّ كعاطفةٍ مهيمنةٍ تتداخل في حياة الناس تداخلاً عميقًا وتؤثر في مجمل حياتهم تأثيرًا بليغًا، فأكّد حبّ الناس للمال حبّا جمًا.. أقرّ بحبّهم للدنيا العاجلة.. وتحدّث عن تزيين حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث..

وبكلمتين دافئتين، لطيفتين، تمسان شغاف القلوب برقةٍ، وتملؤها حبّا.. قال عن قومٍ يمتدحهم " يحبّهم ويحبّونه " لتتطاول أعناق المحبّين لنيل هذه المرتبة.

أحبّ النبي ابراهيم التأمل والتفكر والرياضة الروحية والرُشد، بغية الوصول إلى اطمئنان القلب واليقين.. فأطال النظر في ملكوت السماء والأرض، ثم سأل ربه " أرني كيف تحيي الموتى "..

أحبّ النبي محمد مكة، مسقط رأسه وقال مودعًا ساعة خروجه منها يوم الهجرة " والله لو لم يخرجوني منك ما خرجت ".. كما أحبّ جبل أُحد، وقال عنه " هذا جبلٌ يحبّنا ونحبّه ".. بل لقد أحبّ أمّته، كل الحبّ وعظيم الحبّ، فاحتفظ لها بدعوةٍ مستجابةٍ يوم القيامة..

أحبّ النبي موسى رفقة أخيه هارون، للقيام بالمهمة الموكلة إليه، فسأل ربه أن يشرك أخاه في أمره، وتطاولت نفسه العاشقة إلى رؤية الله فقال له " رب أرني أنظر إليك "..

أحبّ النبي لوط الطهارة الحسية الجسدية، فنجّاه الله من القرية التي كانت تعمل الخبائث..

أحبّ النبي سليمان الملك العظيم، فطلب من ربه مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده.. وأحبّ خيوله فطفق مسحًا بالسوق والأعناق، يستميل أُلفتها، ويتودد إليها..

أحبّ النبي زكريا الولد، فنادى " رب لا تذرني فردًا "، "وهب لي من لدنك ذريةً طيبة "..

أحبّ النبي نوح قومه، فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، داعيًا إلى الحق والإيمان، غير يائسٍ ولا متهاونٍ ولا ملول.

أحبّ النبي داوود المهارة اليدوية والحرفة النافعة، فأتقن صنعة لبوسٍ تُحصن الناس من بأسهم.

أحبّ النبي عيسى التميز والتفوق، على قومٍ ماهرين بالطب والعلاج، فكان له أن مكّنه الله من إحياء الموتى بإذنه، والقيام بالعديد من المعجزات الباهرة للشفاء.

هو الحبّ إذًا.. سيد المواقف..

سيد البدايات والنهايات..

تستمطرني هذه اللفظة..

الخجول، البكر، الأزلية الأبدية، فأشرع في طقوس الكتابة..

وإذا كان فعل القراءة يصدر عن لبٍ عاشقٍ للكلمة والمعنى والفكرة.. فالكتابة عشقُ البوح، اعتصار ثمرات القلوب والعقول.. تحليقٌ في فضاء الوجدان والمشاعر.. هتافٌ روحيٌ يتردد صداه في أرجاء الكون..

القراءة حبّ يتغلغل في كيان القارئ ويأسر ذراته لتنتظم وتخضع وتدور في مسارات وأفلاك، حيث لا فكاك من سطوة جاذبيتها، ولا خلاص من تأثير سحرها.. كما الأقدار لا مهرب منها إلا بالالتجاء إليها والرضوخ لها.

كذلك الكتابة حبّ.. ينساب مع المداد على الورق..

على سطورٍ.. تتوقف عن كونها صامتةً..

لتصير الصارخة في أدمغة البشر المغيبة..

الثائرة في قلوبهم الحالمة..

السفيرة، سفيرة اليقين إلى أرواحهم العطشى.

ابن الشهيد

في أرجاء غرفة الولادة صدحت أول صرخة من صرخاته، لحظة أمسكت به القابلة من قدميه تاركة رأسه يتدلى إلى الأسفل وراحت تضربهما ضربًا خفيفًا يستفز بكاءه.

كانت العائلة تحيط بالمرأة الولّادة باهتمامٍ بالغ، وما إن انطلق صوت بكاء الوليد حتى اختلطت الزغردات بالنحيب، كما اختلطت دموع الفرح (على سلامة القيام والخلقة التمام–كما يقال) بدموع الحزن الذي لما ينقضِ.

كانت الأم ما تزال في العدة، عدة وفاة بل استشهاد زوجها في إحدى المعارك ضد الإرهاب..

والولادة كما الموت، حدثٌ تتنامى أبعاده لتشكل لحظة اجتماعيةً خاصة.. وما بين أفراح هذه.. وأحزان ذاك.. تتلخص حياةٌ.. وتكون..

هكذا هي الحياة.. أناس يرحلون في أوانهم المسماة وآجالهم المحددة.. بينما يولد آخرون، في تواقيتهم المقدّرة ومواعيدهم المكتوبة.. الراحلون يتركون جرحًا يختلف عمقه باختلاف الصلة بصاحبه، والآتون يبثون فرحًا يتنوع حسب جنس المولود ورقم تسلسله في العائلة وطريقة تفكيرها والطبقة الاجتماعية التي تنتمي لها.

انتحبت الجدتان طويلاً، أم الشهيد الذي لم يعش ليرى ابنه، وأم الأرملة الصبية التي جاء حفيدها إلى دنيا لا أب فيها، أما عفاف الأخت الكبرى فقد كانت تحتضن أختها لبنى وتقبل جبينها المتعرق من جهد الولادة، قائلة لها:

– الحمد لله على سلامتك يا حبيبتي، الحمد لله، لقد أكرمك الله بمولودٍ جميل.

ردّت الأم الباكية منهارة القوى وهي تقول:

– جاء طارق.. جاء طارق..

ثم بكت وبكت.. وقالت:

– أبوه الشهيد كان عازمًا على تسمية مولوده إن كان ذَكَرًا بطارق.. هاتوا لي طارق.. هاتوه.. أريد أن أحتضنه.

ومنذ تلك اللحظة، حمل طارق لقب ابن الشهيد.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت رحلة حياةٍ جديدةٍ أدخلها المولود الجديد إلى منزل أبي طارق.

وما بين حاجات طارق، وصراخه، ومناغاته، مرّت شهور العام الأول حافلة بالكثير من التفاصيل الصغيرة التي تكتنف حياة كلّ مولود.. وهكذا.. فمن رحم الآلام يولد برعمٌ حيٌّ، يستدعي لضرورات وجوده تضافر الأمل والعمل.. ومن إرهاصات العتمة يبزغ فجرٌ واعدٌ يفسح المجال لشمسِ نهارٍ جديدٍ أن تتزين بأشعتها الأولى، كإمبراطورةٍ رائعةٍ تشرفُ من قمة قصرها المنيف على مملكةٍ نائمةٍ تصحو بين يديها.

خرجت الأم من العدة فور ولادتها، لكنها لم تخرج من أسوار حزنها العالية ولا من قبضته الحديدية أبدًا، فالمفقود أعزّ وأحبّ وأغلى وأنبل إنسانٍ عرفته في حياتها، كان مصدر سعادتها وهنائها، كان الرجل بكلّ معنى الرجولة الكاملة الحقة، معه عاشت أعوام الاستقرار والانتماء، ومشاعر المودة والرحمة، وحكايات الحبّ والعاطفة الجميلة.

تزوجته حين كانت في الثامنة عشر من عمرها، بعد أن اجتازت امتحان الشهادة الثانوية وقبل صدور النتائج، ولقد كانت رغبة زوجها في إتمام دراستها الجامعية شديدة وملحّة، لا يقبل تهاونًا بها أو إهمالاً لها، فما أن أُعلن نجاحها حتى قام بتسجيلها في كلية الآداب التي رغبت بها، ثم مدّ

لها يد العون والمساعدة في كل شأنٍ من شؤونهما متنازلاً عن الكثير من الرفاهية الذكورية أو الواجبات الحياتية أو المتطلبات التقليدية، حتى حين حملت بابنهما الأول الذي فقدته في المرحلة الجنينية، فقد أحاطها برعايةٍ خاصةٍ كاملةٍ، ولم يتوان عن توفير كلّ أسباب الراحة والصحة الجسدية والنفسية لزوجته الحامل.

ألم أقل لكم أنه كان رجلاً بكل معنى الكلمة!..

كانت سنوات دراستها الجامعية الأربعة مفعمة بالحرص على اغتنام كل لحظة لصالح حلمهما، مليئة بالجهد المحبّب في طلب العلم، وبالتعاون المثمر والاهتمام المتبادل بينها وبين زوجها، وتخرجت لتثبت لنفسها أولاً ولكل من حولها ثانيًا، أن إرادة تحقيق الأهداف والأحلام لا تتوقف عند حدٍ أبدًا، وأن مقارعة الظروف ومصارعة الأقدار ممكنة جدًا حين يكون لديك الكثير والكثير من الحبّ.. .. ..

وهل أكثر من هذا الحبّ الذي يربطها بزوجها العظيم..

وإذا كان المثل يقول: إنّ وراء كل رجلٍ عظيمٍ امرأة، فإنها تضيف له الشق الثاني بأن وراء كل امرأة عظيمة رجل.

أرادت لبنى أن تبحث عن عملٍ تؤمن من خلاله متطلبات أسرتها الصغيرة جدًا، هي وابنها الوحيد، إلا أن حماها رفض بشدة قائلاً لها:

– لبنى يا بنتي.. إنه حفيدي، ابن الغالي، الذي كان يرفض أن تعملي بشهادتك ويصرّ أن تظلّي معززة مكرمة تتنعمين بما يكسبه لكم.. لا والله.. لن تعملي بسبب الحاجة، وسأتكفل بكم جميعًا وبكلّ ما يلزمكم، ولن ينقصكم شيء بإذن الله.. أعدك بذلك.

امتنت الأم الجريحة لموقف الجد، فقبّلت يده وجبينه:

– أنت في مقام والدي رحمه الله، أطال الله عمرك وأدامك فوق رؤوسنا وبارك لك في عافيتك، ورزقك الرزق الحلال الوفير، وأعانني أنا على حسن تربية ابني ورعايته بوجودك يا أبتاه.

******

توالت الأيام وتتالت الأعوام .. رتيبة، هادئة، ترعرع فيها الصبي الوحيد محاطًا باهتمامٍ وحبٍّ كبيرين، خففا وطأة يتمه، وأشاعا في روحه القدرة على التوازن والانفتاح على الآخرين بمزيدٍ من الإيجابية والثقة.

تدرج طارق في مدارج الطفولة الأولى، وقد أخذت بيده أمٌّ عظيمةٌ نذرت نفسها له ولتربيته وتفانت في أداء دورَي الأم والأب على أحسن وجه، وبخاصةٍ بعد وفاة جده الطيب.

وما إن وصل طارق إلى بداية المرحلة الثانوية، حتى أصرّ أن يعمل بالإضافة إلى الدراسة، في كشكٍ صغيرٍ تسلّمه من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل التي قامت بتوزيع هذه الأكشاك لكلّ أسر الشهداء.

الصقر الصغير

في يومٍ ربيعيٍ دافئ قررت العائلة الصغيرة أن تتناول فطورها على الشرفة بين أصص نباتات الزينة التي تصطفّ وتزدحم على كامل أطرافها لتضفي على المكان روح الطبيعة الخلابة.

تبرّع طارق بمسح الطاولة قبل أن يحمل إليها صحون الطعام الذي تعدّه وتحضّره الأم في المطبخ.. وما إن وصل إلى الباب الزجاجي الجرّار المؤدي إلى الشرفة حتى صاح بإثارةٍ واضحة:

– أمي.. تعالي بسرعة.. تعالي انظري.. هناك طائر غريب يقف فوق الطاولة.

سارعت الأم باتجاه طارق.. ولما رأت الطائر.. قالت محذرةً:

– إياك أن تقترب منه.. إنه صقرٌ، والصقور طيور جارحة قد ينقر جلدك بمنقاره المعقوف فيمزقه، مِنْ أين جاء يا ترى؟ إنه صغير.. ضعيف لا يقوى على الطيران.

– أماه.. أريد الاحتفاظ به.. أيمكنني الاحتفاظ به؟

– لعلّ له صاحب.. ثم إنه جارح، قد يؤذيك.

– أرجوك أمي.. انظري إليه، ما أجمله.

سارعت الأم إلى إحضار منديلٍ سميكٍ، وبحركةٍ حذرةٍ من خلف الصقر استطاعت أن تُحكم بقبضتي يديها على الجناحين محتاطةً بسماكة القماش من مخالبه ومنقاره.

– والآن أين سنضعه؟ لا يمكننا تركه حرًا..

صاح طارق مبتهجًا:

– لدى ابن جيراننا قفص للطيور، فارغ، سأستعيره حتى نقرر ما نفعل.

– إذا.. أسرع بإحضاره.

وما هي إلا لحظات حتى كان الصقر في القفص، والعائلة حوله متحلّقة تنظر إليه، وكان أكثرها اهتمامًا وشغفًا طارق الذي قرر الاهتمام بطعامه وشرابه.

– ماذا يأكل؟ ماذا يتوجب علي أن أحضر له؟

– أحضر له مخلفات من اللحم، الطيور الجارحة لاحمة تقتات بعض الحيوانات البرية الصغيرة أو الأسماك.

– سأفعل.. سأعتني به دائمًا، سأعتني به كثيرًا، ولكن ماذا أسميه؟ يجب أن أطلق عليه اسمًا يناسب عنفوانه، لأناديه به، ما رأيك.. سأسميه رعدًا.

صار رعد المخلوق الأثير لدى طارق، يرافقه أغلبَ الأوقات، منذ عودته من المدرسة حتى لحظة نومه، كان يطيل التحديق في عينيه، ويتأمله كثيرًا، ويهتم بكل تفاصيل عيشه.. قال لأمه ذات مرة:

– أماه.. حين أنظر في عيني الصقر أحس أنه يحدق بي، يتأملني كما أتأمله، يتابع حركاتي حين أدور حوله.. آه لو تدرين كم أحبّه.

صمت قليلاً لابتلاع ريقه ثم أضاف متلهفًا:

– أتراه يحبّني مثلما أحبّه؟!!!!!

علّقت الأم وقد سمعت حديث ولدها الشغوف:

– نعم يا عزيزي، يحدث أن يحبّ البشر طائرًا أو حيوانًا، بل وإن الطائر أو الحيوان قد يبادلان صاحبهما الحبّ أيضًا، فكم من ألفة حدثت في قلب طائر صغير، أفقدته حياته عند غياب صاحبه،

وكذلك النبات، يحبّنا ونحبّه، فالنبتة التي تحوطها برعاية خاصة وتغازلها عند سقايتها، تحييك أوراقها وتظل نضرة دائمًا..

الحبّ هو الحبّ يا بني.. مهما كانت محبّوباتنا.. إنّ مجرد الشعور بالحبّ يدخل البهجة إلى الروح، يرقّيها، ويسترد فيها توازنًا خاصًا نواجه به عالماً

مضطربًا هائجًا.. والأروع في هذا الشأن حتمًا، أن يبادلك الحبّ من تحبّه..

أنت تسعد إذ تكون محبّوبًا، فهل تستطيع أن تكونه؟؟!! حاول أن تكونه ، بل لا تكفّ عن المحاولة أبدًا.. فالتحبّب سر الشخصية المتألقة.. تجمّلْ.. تلطّفْ.. واهتمْ بتفاصيل حياة الآخر مهما كان هذا الكائن الآخر، بشرًا أو حيوانًا أو نباتًا، تربح حبّهم على أي حالٍ.. ألا ترى كيف أعامل نباتاتي على الشرفة.. ألا ترى كم جميلة وكثيفة؟!.

أجاب طارق مازحًا:

– أجل يا أمي.. أنت تقرأين لها في كلّ يوم قصيدة غزلية، وتغنّين لها، أسمعك تدندنين لها بصوتك الرخيم.. هنيئًا لها.. ليتني مكانها.

– ولد !!! لقد أشبعتك هدهدة ودندنة حتى أصبحت شابًا بطولي.

– أمي أنا أطول منك، لا تنسي هذه المعلومة..

وبحركةٍ ودودةٍ.. استدار وقبّل رأسها وجبينها.. ثم تابع قائلاً:

– ولكنك فوق رأسي يا أمي.. حفظك الله وأدامك ذخرًا.

– يا الله ما أجمل الظلال التي تلقيها العواطف المتنوعة على حياتنا !

– وما تقصدين بالعواطف المتنوعة؟

– ألوانٌ وأنواعٌ من الحبّ نعيش بها.. قد تحبّ مكانًا ما، فينشرح صدرك عندما تلبث فيه مدة من الوقت، تتخفف عنده من أعبائك وضغوطاتك، وتعيد شحن روحك من جديد.. أحيانًا.. يترك المكان بصمته الدائمة على جدران روحك، ويملأ الخانة الخفية التي تأوي إليها كلّ أحلامك، فلا تكاد ترى نفسك في مناماتك إلا متجولاً بين أصقاعه.. نغادره لسببٍ أو لآخر، ولا يغادرنا، نرحل عنه آمادًا، ويتسلل الزمن من بين جنباته هاربًا، إلا أنّ أسلاكنا العصبية تظلّ موصولة به، وخلايا أجسادنا تبقى مأسورةً في مدارات عشقه.. هكذا هو بيت جدي.. المطرح الذي تهيم به وإليه روحي كلما انفلتتْ من عقال الجسد وراحت تطوف في ملكوت الغيب، إليه تعود متلبسةً بكلّ مفاتن الطفولة وشغَبها، وكلّ إيقاعات الصبا وشغفه.. تضجّ الذكريات في رحابه دائمًا وأبدًا، تلاحقني وألاحقها، وكأننا في لعبةٍ مرحةٍ مستمرة.. آه ما أجملك يا بيت جدي.. !! كم أحبّه.. !

– دعينا نزوره يومًا.. خذيني إليه.

– لقد هدموه وأقاموا على أرضه مبنى كبيرًا، تسكنه الآن عشرات الأُسر.. أنا أحنّ إليه باستمرار والحنين جزء لا يتجزأ من الحبّ.. آ.. لقد كنّا نتحدث عن ألوان الحبّ وأنواعه، أليس كذلك؟ دعنا نعود إذا..

قد تحبّ شيئًا ما، فيسرّك امتلاكه والحصول عليه، وتدخلك البهجة كلّما لامسته أو استعملته.. قد تحبّ كتابًا فتبتهج باقتنائه، تقرأه بعنايةٍ شديدةٍ، وتعيد قراءته مراتٍ ومرات..

– وقد نحبّ صديقًا ما، فنسرّ بلقائه ونسعد بصحبّته..

– وهذا يساهم في تكوين شخصيتنا ورسم أبعادها.. لأن الإنسان يتأثر ويؤثر بكل ما حوله.. إن ما نحبّه يشكلنا، ويحدد هويتنا، ويميّز ذواتنا.

أجاب طارق وقد فهم ما ترمي إليه والدته:

– على مبدأ " قل لي – من – أو – ما – تحبّ أقل لك من أنت " أليس كذلك؟!

– بلى هو كذلك.. وكلما كانت محبّوباتنا عظيمة، راقية، سامية، جميلة، كانت نفوسنا أقرب إلى الكمال والرقي والسمو.

******

بعد عدة أيامٍ.....

عاد طارق من مدرسته ليرى الوجوم يخيم على أركان البيت وعلى وجوه سكانه، أدرك بسرعة الحدس الداخلي أن هناك ما تخبره أمه به، فالتفت

بعفوية نحو قفص الطائر الحبّيب، لكنه لم يجد فيه شيئًا.. هلعت ملامحه وانتفض قلبه في صدره:

– ماذا حلّ برعد؟؟!! أمي أين هو؟؟

–.. .. ..

– أخبريني بالحقيقة.

–.. .. ..

– أماه.. أين رعد؟

– الصقر مات يا بني، لا أدري كيف، وجدته ممددًا في أرضية القفص، حركته، أخرجته، كان بلا حراك.

بكى طارق وهو يقترب من القفص الفارغ، يداه ترتجفان وقلبه يخفق، قال متألماً:

– في الصباح تبادلنا التحية وبحرارة، صدقيني، قلت له صباح الخير يا صقري العزيز، فرفع أحد جناحيه وكأنه يرد التحية، بل وكأنه يمدّ يدًا للمصافحة.. فرحتُ بذلك كثيرًا.. غمرته بكلمات رقيقة تعبّر عن حبّي له:

– أحبّك.. أحبّك يا رعد، يا صقري الصغير..

فرفع كلا جناحيه.. صدقيني، لقد أحسست وكأنه العناق.. آه يا أمي.. الآن يبدو لي أنه كان الوداع الأخير.

تألم طارق كثيرًا.. اكتنفته أحاسيس مهيبة حيال هذا الحدث الأليم، وغاصت إلى قعر ذاته هيمنة الموقف الصعب.. لم يقترب منه الموت قبل ذلك..

الموت.. المصير المحتوم لكلّ كائنٍ حيّ.. النهاية المنتظرة لكل حياة..

له غصته.. وألمه.. وقدرته على استلاب دموعٍ غاليةٍ نسفحها على أعتابه..

ولأنه نهاية كلّ حيٍ.. تنشر هيبته ظلالاً قاتمةً، لحظة حدوثه لأي كائنٍ حيٍ، تحت مسمع ومرآى مرهفي الحس، ورقيقي الشعور..

لكنه كان ولم يزل القدر الذي نحطّ رحالنا جميعًا لديه آخر المطاف..

أدوارٌ نتداولها.. يفارقنا الآخرون، لنفارق آخرين بدورنا.

قالت الأم وقد ضمّت ابنها المتألم إلى صدرها:

– أشعر بك تمامًا يا بني.. أعرف هذا الشعور، لقد خبرته ذات يوم في طفولتي..

كان عند جدي حصان أصيل جميل.. أشقر اللون، تتربع فوق جبينه غرة بيضاء ناصعة، وفي كل زياراتنا للقرية كنت أقضي أجمل أوقاتي في

مساعدة جدي في الاعتناء به وتنظيفه، كان هذا المخلوق الجميل يحني رأسه برقةٍ بالغةٍ ويرفع قائمته الأمامية اليمنى ليشكرنا ويحيينا..

وفي ذات مرة.. كُسرت ساق الحصان وإحدى فقرات رقبته، بسبب وقوعه إثر انهيار جرف صخري عليه، تألمتُ كثيرًا، وكنت أريد تطبيبه والعناية به مهما كلفني الأمر، لكن الطبيب البيطري نصح جدي برصاصة الرحمة كما يقولون عنها، يومها بكيت كثيرًا، بكيت حتى انفطر قلبي..

لم أستطع رؤيته هامدًا بلا حراك.. ظللت لسنوات أحسّ به، أحسّ بروحه ترافقني كما كان يفعل، صوت صهيله يعبر مسامعي، نعومة جلده تتلمسها أناملي.. إنّ حبّنا لحيوان أليف يجاورنا العيش فوق كوكب الأرض، يملأ حياتنا سعادة من نوع خاص.. يشبع عواطفنا الممتدة إلى مخلوقات أخرى غير البشر.. يلقي ظلالاً ملونةً بهيجةً على أوقاتنا.. يصنع شيئًا من التوازن المفقود في بعض العلاقات الإنسانية.. يتمم إنسانيتنا برفقٍ مخصوصٍ لكائناتٍ عجماواتٍ، تهتم أنت بحاجاتها دون طلب منها، فتبادلك بشكرٍ حميميٍ تحسّ به من ألفتها نحوك..

أنا أعرف أنك تفهمني، فأنت قد تذوقت هذا الحبّ مع طائرك الصغير..

أجهش طارق بالبكاء.. وقال:

– أمي لماذا نفقد أحبّتنا؟؟

كان السؤال كبيرًا جدًا.. تجاوز في إيلامه حدود الحديث الدائر حول فَقْد الصقر.. وهي التي عانت من فقد من أحبّت، بل إن كل فقدٍ ينطوي على مزيدٍ من الألم قد لا تتسع له حنايا الصدر، صار السؤال يتمدد كدوائر صنعها إلقاء حجرٍ في بركة ماءٍ راكدٍ، لذا لم تشأ الأم أن تعلّق في ذلك الوقت الحرج، ولا أن تفتح الباب لجراحٍ لم تغادرها بعد، فاكتفت بعناق ابنها واحتضانه بحنانٍ شديدٍ.

فسيفساء

رنّ جرس الهاتف، فصاح طارق مبادرًا:

– سأردّ أنا.. لابد أنه صديقي نضال.. أنا أنتظر مكالمته.

وسارع إلى رفع السماعة فإذا بها العمة عليا..

– أهلاً عمتي.. أهلاً بك.. .. .. .نحن بخير، كيف حالك أنت؟؟.. .. .. .. دراستي؟؟؟! امم مم جيدة لا بأس بها.. .. .. طبعًا النجاح مضمون بإذن الله.. .. .. .نعم، نعم سأبذل جهدًا أكبر.. .. .. أجل، أعدك بذلك.. .. .. أمي؟ إنها هنا سأناديها لك.

تناولت الأم سماعة الهاتف من يد طارق، وفركت أذنه بلطف بيدها الأخرى وهي تقول له:

– سمعتك تعد عمتك ببذل جهدٍ أكبر، سنرى وفاءك بالوعد أيها الرجل الصغير.

قبّل رأسها بحنان مداعبًا ومتملصًا:

– أحبّك ماما.. صدقيني.. سأنجح بإذن الله.

أنهت لبنى الحديث الهاتفي بقولها:

– حسن.. سأكون عندك في الساعة الخامسة.. يسرني ذلك، فشكرًا لك.

سألها طارق مهتمًا:

– أهو موعد فردي أم سأكون معك عند عمتي؟

– لا بني.. سأذهب وحدي، إنه موعد نسائي.

– اللقاء الدوري لصديقات العمر، أليس كذلك؟

– نعم يا طارق.

– أمي، أنا أغبطك على هذه اللقاءات اللطيفة، أنت تعودين منها أكثر إشراقًا وتألقًا مما تكونين قبل ذهابك، فما الذي يتغير فيك؟؟

– آ.. حقًا.. هل لاحظت ذلك؟

– بلى.. أشعر أن حيويةً تتدفق في شرايينك من جديد، وأن طعم الأيام لديك يصبح مختلفًا.

– هو كذلك يابني.. إن فسيفساء تلك الأماسي تسحرني بكل معنى الكلمة.

– حدثيني عنها بالتفصيل.. كيف تعرفت على كلّ تلك الصديقات؟ ومنذ متى؟

– إنهن زميلات عمتك عليا..

– أنا أرى أن علاقتك بعمتي عليا أكثر من مجرد علاقةِ أخت زوجٍ بزوجة أخيها.

– نعم هذا صحيح، إنها صديقتي على نحوٍ خاصٍ جدًا، أنا لم أكن أعرفها من قبل، ولكن ومنذ الأيام الأولى لخطبتي على والدك توثقت بيننا رابطة متينة، وصداقة حلوة، فهي كما تعلم تكبرني بعامين، وتقارب أعمارنا وتقارب أفكارنا كان له الدور الهام في استمرار الصداقة.. وأصبح تواصلنا مستقلاً تمامًا عن العلاقة الأسرية.

– وماذا عن بقية الصديقات، الشلة التي تجتمع دوريًا.. وفي كل مرةٍ عند واحدة؟ هل انسجمتِ معهن أيضًا؟

– إنهن كنغمات السلم الموسيقي، لكلّ منها إيقاعه الخاص.. سوزي الشركسية.. جانيت المنحدرة من أصل آشوري.. فيفيان الأرمنية.. هيفيا الكردية.. ناتالي روسية الأم.. ميس وبشرى وفاطمة.. القادمات من محافظات سورية مختلفة، وكما ترى فهي الخلطة السحرية السورية.. أطيافٌ للمجتمع السوري والأعراق التي تقطن فوق أرضه.. غنيةٌ بألوانها

وتمايزها، عامرةٌ بالكثير المتنوع من الأصناف.. تصبّ بغزارة مكوناتها الألقَ على طعم الحياة، وتضفي عليه طبيعةً مميزةً..

إنها الفسيفساء السورية.. والموزاييك الرائع الذي لا تجد في أرض أخرى مثالاً له..

تتجسد في وطنٍ واحدٍ تغمره أُلفة عجيبة.. وتتناغم أجزاؤه على أروع ما يكون التناغم البشري، في عيشٍ مشتركٍ حميميٍ..

هذه الصداقة الجامعية المتميزة، استمرت طويلاً إلى ما بعد أيام الدراسة، كان يجمعهن حبّ هذه الأرض.. حبّ الإنجاز وتحقيق الذات.. حبّ الإنسانية جمعاء على تنوع ألوانها وأعراقها..

وكما ترى بُني.. فإنهن مختلفات إلى حد بعيد.. وهكذا تصير جلساتهن أغنى وأمتع، تتناول كل منهن طرف الحديث لتصبغه بثقافة البيئة التي تعيش فيها بما فيها من تقاليد وأعراف.. وهل أجمل من أن تتعرف على ثقافات الشعوب وفلكلورها، فكأنك تقبع فوق بساط الريح الموشى بأنغام وضحكات الصبايا..

كان أهمّ ما يميز هذه المجموعة البشرية الصغيرة الملونة، أنها تعشق التميز.. فتخيل معي أن يكون لديك أنت حاصل التميز كله.. لاشك أنك تصير غنيًا به ما دمت حريصًا على تعلمه وأخذه..

كلّ واحدة منهن تتقن فنًا يدويًا.. وتملك مهارة خاصة.. وعلى كلّ واحدة أن تعلّم الباقي ما تعرف.. وبشكل دوري تصير إحدانا الأستاذة التي تعلّم الجميع.. أحيانًا تُطرح فكرة أن تكون الجلسة القادمة لمناقشة كتابٍ مقترح.. أو برنامجٍ وثائقيٍ معين.. وهكذا.. تثمر اللقاءات حبًّا للمعرفة والعطاء والإنجاز.

– حقًا يا أمي.. أنتن من أجمل المجموعات التي سمعت عنها، وهنا يراودني سؤال هام.. " أيهما أفضل، أن يكون للإنسان أصدقاء كثر أم صديق واحد؟ ".

– الصداقة درجات، ومستويات.. ولا أظن أن شخصين اثنين يمكن أن يحتلا المكانة نفسها، في الدرجة الواحدة.. أنت قد تتقارب مع الكثيرين ولكن بنسبٍ مختلفةٍ مع كل أحد.

– أمي أنت تعرفين نضال.. إنه الأقرب إليّ، نتلاقى في العديد من النقاط المفصلية وما يتفرع عنها، وننسجم في اختياراتنا وآرائنا، أما بقية الرفاق فيتساوون تقريبًا بالنسبة لي.

– على كلّ حال يا بني، ما زال في العمر متسع لمعرفة المزيد من الأصدقاء، ولكن عليك أن تعلم أنّ كلّ الصداقات تدوم وتستمر

بالتغاضي والتسامح، وتزداد انسجامًا وتناغمًا بالتراضي والتوافق، بينما تذوي وتمرض بالتدقيق والملامة، وتنتهي وتتلاشى بالتحقيق والملاحقة.

البداية

لكلّ حدثٍ سرّهُ الخفي.. توقيته الأزلي الذي خطّته الأقدار في لوح السماء.. ظروفه التي تتناغم تمهيدًا لوقوعه.. منها ما نملك حياكته، ليكون لنا الدور البارز في صنع أطوار حياتنا، ومنها ما تحيكه لنا أو علينا المشيئة الإلهية.. ومن بين يدي الصديق نضال تسلل القدر خلسة ليوقّع أمر المباشرة، وليعلن صافرة البدء في خفاءٍ مطلقٍ، يستحث الأحداث ومجرياتها.

قبل أن تصل يد نضال إلى خصلات شعرها المتطايرة مع الهواء.. وقبل أن تنتهي كلماته الجريئة التي تقول " يسلم لي الليل الهفهاف على قامة البدر " التفتت رؤى بوجهٍ يقطر الشرّ منه وبعينين صارمتين كالحراب لتكسر تطاوله الوقح قائلة:

– اكسر يدك يا.. .. ..

وفجأة.. وكأنها استثقلت حتى أن تصفه بوصفٍ ما، أشاحت بملامحها الغاضبة المستأسدة ومشت لتترك وراءها ثلةً من الرفاق في موقف لا يحسدون عليه.

تجمّد طارق ورفيقيه أمام ما فعله رابعهم من رعونةٍ جعلتهم محطّ ازدراء كل المارين.. بل إن أحد المارة بصق إلى جواره وهو يكيل الشتائم لهذا الشباب الطائش الأرعن.. وعلّق آخرٌ بقرفٍ واضح " أما من نخوة في رؤوسكم؟! ".. أما من مرّت بقربهم من النساء فقد سارعت إلى اجتيازهم وكأنها تهرب من جيفة قذرة.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يتجرأ فيها أحدهم على معاكسة البنات في الشارع بغير هذا الأسلوب.. ولكنها آلت هذه المرة إلى نهاية مختلفة عن سابقاتها..

ليس بالنسبة إلى الرفاق جميعاً.. بل بالنسبة إلى بطل قصتنا طارق.

طارق.. ابن الشهيد صالح الذي دفع حياته رخيصة في سبيل الله وهو يدافع عن وطنٍ غالٍ دنسته مطامع الإرهابيين.. طارق الشاب الذي اضطره ضيق العيش إلى العمل وهو على أبواب الشهادة الثانوية، بعد وفاة جده، ليعين والدته على الإنفاق في المنزل.

عاد إلى منزله في ذلك اليوم.. وقد أوجعته نظرات وكلمات الاحتقار التي انهالت عليهم.. بدا متوجعاً حقاً.. تئن كرامته التي أنشأته عليها أمٌّ صالحة زرعت في داخله شمم والده وإباء وطنه وقيم أخلاقٍ عربية أصيلة هي أثمن ما يملك.

نظرت الأم في وجه ولدها نظرة متفحصةً ومسحت بيدها الحنون رأسه وخدّه قائلة:

– أستطيع أن أسمعك بعد تناول الطعام.. سأتفرّغ لك حال انتهائك.

– لا رغبة لي في الطعام الآن؟؟

ارتمى طارق فوق الأريكة مثل عائدٍ من سفرٍ طويل.. تنفّس بعمقٍ ثم قال:

– ما أبشع ما تلصقه بنا أخطاؤنا.

ردّت الأم بحنانٍ حكيم:

– كثوبٍ ناصع البياض أصابته قذارةٌ ما.. لكنه يا بني يعود نظيفاً كلما سارعت إلى تنظيفه.

– فإن كانت القذارة غير مرئية، كموقفٍ.. أو كلمة؟؟

– لكل داءٍ دواءٌ يُستطبّ به.. ألست معي في ذلك؟

هزّ طارق المتوجع رأسه، وراح يحكي لأمه التفاصيل التي جلدته في الطريق..

رمقته الأم بنظرة عتبٍ بليغ تزيد اشتعال ضميره وتذكي صحوته وتبقيه يقظاً واعياً متأهباً لتفهم واستيعاب ما تريد قوله..

إنه وحيدها.. الذي يتجاوب دائماً بشفافية أثناء تحاورهما..

وما أكثر ما يتحاوران!!.وماأجمل ما يتبادلان من حديث!!.. هي عادتهما القديمة قدم بلوغه سنّ الشباب.. بل إنها تمتد في أعماق طفولته حيث كانت عيناه البريئتان تتعلقان بلغةٍ وألفاظٍ تنساب فوق شفتيها، محمّلة بالكثير من المعاني التي تتسلل إلى أغوار لاوعيه، فتستحسن سلوكاً أو كلمةً، أو تستهجن ما يغايرهما، ليتحول ذلك كلّه إلى مفردات حياة تتنامى لديه لتبني له صرحاً فكرياً خاصاً.

قالت الأم بعد صمتٍ وجيز:

– يكفيني اعترافك أنها أخطاء.. لأفهم أن لدى ولدي محاكمة سليمة تفرّق له بين الفساد والرشاد، وهي خطوة أولى.. ينبغي لك بعدها أن تملك القوة والقدرة على الاختيار الصحيح الأصلح.. واعلم أن البشرية جمعاء لا تختلف مع كثرة أعراقها، على ما يمثل جوهر الخير والنقاء في النفوس.. وتبقى الإرادة الصلبة المتماسكة الواعية هي محكّ الرجال..

كثيرون هم، من يحملون في وجوههم شارب الذكورة.. ثم لا يزيد عن أن يكون مجرّد رمزٍ أجوفَ يحسب عليه لا له، كلما أظلّه امتحان جديد.. كثيرون هم أنصاف الرجال.. أو أشباه الرجال.. ويعزّ على الرجولة انتسابهم إليها، فترفضهم ليظلّوا بلا هوية ولا انتماء.

– أماه.. لقد أُسقط في يدي.

– لا تثريب عليك إذا لم تصرّ على فعل الخطأ.. وهذا هو الدور الفعلي للمحاسبة اليومية للنفس، للتأمل الداخلي والتفكر والمراقبة الدائمة.. أنت تمسك أولاً بالخطأ ثم تفهم بواعثه ودواعيه ثم تقوّم سلوكك وتسدد خطاك.

– أفهم ذلك يا أمي.. ولكنّ التطبيق صعبٌ.

– إن ممارسة الصعب تجعلك أقوى.. وأصلب.. والبداية في أيدينا دائماً.. نأخذ بالأسباب الأرضية تماماً ثم نلتمس العون من رب السماء.

قالت الأم كلماتها هذه وهي تغادر مجلسهما هذا، وظلّ طارق يلاحق صوراً ومعانٍ كثيرة تدور في رأسه.

*****

في صبيحة اليوم التالي..

أشرقت شمس نهارٍ جديد.. تمنح الأحياء والأشياء ذرّات كونية فريدة.. وتثاءب الكون وتمطى من تحت لحاف اليوم السابق.. كرجلٍ حكيمٍ.. يقلب صفحةً من دفاتر الحكمة ليطلّ بنهمِ المفكر على سطور الصفحة التالية.. نظارته فوق عينيه الغائرتين.. والمكبرة في يده المرتعشة.. والشوق الخالد لكل جديد الحياة يتفتح في قلبه الأزلي الأبدي..

غادر طارق منزله كالعادة مبكراً وهو يشعر بخفةٍ ونشاط.. بعد أن مرّت ليلة البارحة بكل ثقلها ووطأتها على نفسه.. كان الحديث مع أمه وكالعادة دائماً.. يفرّغ كل الشحنات السلبية التي تسري في أسلاكه العصبية فيطرح بعيداً نفايات التوتر الزائد والانفعال غير المرغوب فيه..

كانت خطواته ثابتة رتيبة.. تحاكي رتابة الخواطر التي تتوالى في ذهنه.. ولكن فجأة.. قفزت إلى مخيلته ملامح الغضب الجميل الذي علا وجه الفتاة أمس.. رافقته تلك الملامح برهة وتغلغلت فيه لتفسح لصورة ذلك الوجه مكاناً في الذاكرة ولتجعل منه خطوطاً محفورة على صفحتها.. ثم تسلل صوتها الجريح بقدر انتصاره وانكساره إلى مسامعه من جديد وتردد صدى عبارتها المبتورة في أرجاء ذاته ليوقّع علامات صوتية متميزة.. تذكر تهوّر صديقه نضال.. ودون تردد قال بعفوية " ما أبشع ما فعلت يا

نضال!!" وما إن وصلت إلى أذنيه هذه الكلمات حتى تلفتّ حوله "ترى هل سمعني أحد؟؟.. كنت سأوصف بالجنون.. أتحدثُ بصوتٍ مرتفع وأنا وحدي.. حسبي الله.. "

قرر طارق أن يتشاغل بشيء آخر عن هذه الأفكار التي تطارده.. قرر أن يستظهر سورة الواقعة التي أتمّ حفظها قبل أيام.. وحين وصل إلى مكان عمله اتصل هاتفياً بصديقه نضال وتواعدا على اللقاء.

*****

وصل نضال إلى منزل طارق.. ودوّت في الشارع صفرة متقطعة كانت هي الإشارة المتعارف عليها بينهما.. سارع طارق بالخروج من البيت.. سأله نضال:

– هل اتصلت بباقي الرفاق؟

– لا.. أريد أن أتحدث إليك على انفراد بخصوص ما جرى أمس..

– أما زلت تذكر؟.. أنا نسيت الموضوع تماماً.

– ليست عادتك ولا أخلاقك.. لقد فاجأتني بتطاولك أكثر من اللازم.

– لا أدري لقد خرجت هذه الجملة من فمي عفوية وتحركت يدي بشكل لاإرادي.. رأيت شعراً أسود منسدلاً لمّاعاً والخصلات تتطا..

– كفى.. كفى.. لقد جعلتنا مثار اشمئزاز الناس واحتقارهم.

– أنا لا يهمني الناس.

– يجب أن تعترف أنك قد أخطأت.

ضحك نضال بعد أن كاد التوتر يتسرب إلى نفسه.. أجاب بهدوء:

– أيها المحقق الفاشل.. ما هكذا تؤخذ الاعترافات.

– نضال أنت صديقي.. أعزّ الناس وأقرب الأصحاب.

ردّ نضال معابثاً:

– حسن.. وتريد ثمن ذلك مني اعترافًا بالخطأ.

– نضال؟!

– أمزح.. أمزح.. وعلى كل حال فأنا لم أكن أقصد ما آل إليه هذا الموقف من سوء.. الحقيقة أنني لا أجد متعتي في ذلك.. كنت أجاري الشلة فحسب.

– هو طيش شباب.. ورعونة لا تليق.

– ونحن أعقل من ذلك وأوعى.. أليست هذه نصائح الوالدة الكريمة أعزّها الله؟

– إنها أعظم أُمّ في الدنيا.. وأنا فخور بها.. أفنت شبابها في تربيتي.

– وكانت النتيجة.. طارق الوقور الرزين الـ..

– أو تسخر يا سيد.

– ياأخي.. أمزح.. أنا أيضاً أعتز بصداقتك.. ولو لم تكن كذلك ما جعلتك صاحبي.

– نضال.. عدنا للسخرية.

– لا أسخر.. صدقني.. والآن.. دعنا نخطط لسهرة الليلة.

– ما رأيك بالذهاب إلى مقهى الأمراء.

– أراك قد اعتدت الجلوس إلى الأستاذ صفوت.

– إن حديثه الممتع يحملني على أجنحة الفكر المثقف إلى عوالم غنية.. ألا تحبّ حديثه مثلي؟

– مثلك.. لا.. أنت تعلم أنني لا أحبّ تقليد أحد.

– يا لك من مشاكس.. ليس مثلي.. ولكنك تحبّه أليس كذلك؟

– حسن.. هكذا صارت العبارة أفضل.

– إذن أنت تحبّ حديثه؟

– أظن أن.. .. ..

– انتهينا.. انتهينا ياأخي.. لم أعد أهتم بالإجابة.. لك ما تشاء.

– لا تغضب.. كنت أمازحك فقط.. أنا أحبّه مثلك تماماً.. هيا فلنذهب.

رؤى

اقتربت الفتاة من الكشك تسأل عن إمكانية استخدام الهاتف لإجراء اتصال.. بعد الموافقة.. راحت تتحدث إلى والدتها بصوتٍ خفيض بعض الشيء، لكن سمْعه حمل إليه جملتها الأخيرة [أمي، قولي لها إن رؤى ستتأخر هذا اليوم، أنا لن أعود قبل الثامنة مساءً] والتفتت إليه كي تعطيه أجرة المكالمة إضافة إلى ثمن بعض الحلوى التي اشترتها، فإذا بوجهها ينقض عليه كالصاعقة..

إنه هو.. وجه الفتاة الغاضبة المستأسدة.. لم ينسه رغم مرور أيام طويلة على تلك الحادثة.. ولكن..

ولكن أين شعرها الجميل الأسود.. لم يصدق عينيه..

إنها هي.. متأكد من أنها هي.. ولكنه يرى اليوم فتاة محجبة، تحفظ شعرها تحت خمارٍ أبيضَ ناصع وتصون جسدها تحت معطفٍ أنيق.

غادرته مسرعة إلى شأنها.. أو لعلها لم تغادره أبداً.. فقد ظل صوتها وطيفها واسمها عبقاً في المكان.

أسرّ طارق إلى صديقه نضال بما يشعره من اضطرابٍ غريبٍ حيال تلك الفتاة التي كانت تقطن على ما يبدو في الحي المجاور، أو في مكانٍ قريبٍ ربما..

المهم أنها كانت تتردد أحيانًا على الكشك لشراء بعض ما يلزمها.

*****

رؤى إذا.. الفتاة التي بدأ اسمها يحتل في فكرك مساحة أوسع.. يقفز في ذاكرتك كعصفورٍ ينقر صفحة الماء ويصنع فيها اضطراباً جميلاً..

رؤى.. اسم يسقط في بحر قلبك الساكن كما يسقط الحجر في الماء الراكد ليرسم دوائر تزداد اتساعاً واتساعاً وتمتدّ لتشمل الأفق كلّه..

رؤى.. وتصير الدنيا دفعةً واحدةً وبكل رؤاها، رؤى واحدة تفقد تعدديتها وتتوحد مظاهرها..

ما هذا.. هل هذا هو الحبّ؟؟؟

الحبّ.. إنه اللفظة الأكثر استهلاكاً في حياتنا التجارية..

نجدها على أغلفة الدفاتر المدرسية وقد تداخلت مع صور قلوب حمراء أو ملونة..

نجدها محفورة على قطعة معدنية وبحروفٍ أجنبية تنغرز في حقائب جلدية يدوية..

نجدها مطبوعة فوق ألبسة النساء والشباب والأطفال..

نجدها في صور الإعلانات عن الجوّالات وهدايا المناسبات..

لقد صار الحبّ اللفظة الأكثر ابتذالاً في كل مكان.. حتى كأنه فَقَد محتواه وحقيقته، وغدا قشرة زائفة برّاقة لا مضمون لها.. الأغاني مليئة به.. والمسلسلات تتحدث عنه.. وبعض الرفاق يعيشونه أو يدّعونه ولكن هل هذا هو الحبّ حقاً؟؟؟

لقد سمع عنه الكثير.. ورأى عنه الكثير.. ولكنه اليوم يبدو مختلفاً تمامًا..

إنه أكثر حرارة.. إنه شديد الحرارة والتوهّج.. بل إنه حارّ جداً لدرجة تجعله يتصبّب عرقاً..

إنه اليوم.. أكثر رقّة وعذوبة من مجرد قصيدة غزلية..

إنه اليوم.. أكثر دفئاً وحميمية من كل ما تبثه فينا العاطفة وينشره علينا الحنان.

لله در الحبّ ما أخفى أسراره.. قد يتسلل الحبّ أحيانًا من النافذة.. أو.. قد يدخل من الباب المفتوح على مصراعيه، أو من الباب الموارب.. قد يأتي مثل نسمة أصيلٍ رقيقة، أو يتدافع كريحٍ عاصفة..

قد يبزغ مثل برعمٍ فتيٍ، وقد ينهال كصاعقةٍ حارقة..

أحيانًا، نحن الذين نعترض طريقه، نخرج إليه.. نستقبله على أية هيئةٍ كنا، في أبهى حلةٍ، أو شعثًا غُبرا..

وأحيانًا نتمناه ولا يأتي، وننتظره فلا نلقاه.. وقد نهرب منه فيلاحقنا كمحققٍ محنك، و يطاردنا كصيادٍ ماهر..

تارةً يأتي مباغتًا من دون مقدمات..

وتارةً يأتي بعد زمن طويلٍ من الألفة والتعارف والإعجاب.

ظلّت الكلمات حبّيسة خجولة تتلجلج في صدر طارق مخافة البوح.. قال لنفسه " هل ما أشعر به تجاه هذه الفتاة يدخل في دائرة الحبّ؟ إن مجرد مرورها من أمامي يقذف بأطنانٍ من الدماء في قلبي، فيختلج، ويتعثر في ضخّها وتنظيمها، الأمر الذي يوقع جوارحي في اضطرابٍ، وفكري في ارتباك.. ما هو هذا الشيء الذي يصعقني كضربة كهرباء.. ثم يسري في عروقي خدراً لذيذاً تجعل خلاياي تشع كماسات حقيقية وكأنني بها أغادر اللحم والعظم لأطير كشعاع لا ثقل له ولا كثافة.

أشعر بشفافيةٍ تتقمصني وتسمح لكل العيون باختراقي وصولاً إلى ذلك القلب الذي ينتفض استعداداً للطيران.. ويزيد في ارتباكي ظنٌّ أبله أن أمري قد افتضح فأدير ظهري وأتشاغل بأي شيء تعثر به يداي حتى إذا اطمأننت إلى أني خرجت من ساحة الرؤية، رحت أطاردها كي تخرج هي من ساحة شعوري.. يغالبني حينذاك خاطر ساخر "أتريد أن تقف في وجه الطوفان؟"

ولكن.. لا.. لن أدعه يصير طوفاناً..

لابد لي من روية وحكمة وحسن تصرف..

لابد أن أفهم وأفكر ثم أقرر.

وللحوار أجنحة ملونة

قبل الموعد المحدد بدقائق قليلة، راح الأستاذ صفوت يستعدّ لاستقبال ضيوفه الكرام، كان كلّ شيءٍ يحتلّ مكانه بالضبط، آلة التسجيل التي تصدح بألطف الألحان الموسيقية الهادئة، ترافق أحاديثهم الشجية، وتضفي على الأجواء تناغمًا وشاعرية.. الكتب المنتقاة مسبقًا والمطروحة للنقاش.. مِجْمَرٌ تتوضع فوقه دلّة القهوة المرّة، مع فناجينها الصغيرة المذهبة.. شمعداناتٌ برونزيةٌ تحمل شموعًا حمراء يتراقص لهبها الأنيق في صمتٍ معبّرٍ.. باقةٌ كبيرةٌ من الورود والأزهار المتنوعة، تتوسط الطاولة الخشبية المزخرفة.. وأخيرًا، وقبل أن يرتدي وشاحه المفضل ذا الألوان الترابية، الذي يضعه خصيصًا لهذه المناسبة بالذات، راح ينثر رشقاتٍ من معطّر الجو، ذي الرائحة الأثيرة لدى روّاد مجلسه، رائحة الياسمين، تلك الزهرة التي يعشقها جميع السوريين، لأنها رمز الأرض الطيبة التي تنثر

الحُبّ قبل العطر، والجمال قبل الظلال، يتألق لونها الأبيض بين الأوراق الخضراء كنجومٍ متلألئة في سماء حالكة..

توافد الزوّار بأوقاتٍ متقاربةٍ جدًا، فهم يحرصون على الحضور المبكر دون تأخير.. إنه الموعد المحبب للجميع دون استثناء..

بدأت الجلسة الثقافية مع الأستاذ صفوت.. راح الأصدقاء يتطارحون النقاش الودود.. فيغوصون إلى أعماق الكلمات المتوالدة من معانٍ وآراء، ويستشرفون آفاق الأفكار الملونة كقوس قزح..

كان هذا دأبهم دائمًا..

وكانت هذه أجمل أوقاتٍ جماعية يقضونها مع الحكيم الطيب.. الذي لا يبخل على رفاقه وتلامذته بوقته أو معرفته أو حبّه..

يلتقون حول دائرة مستديرة ليدور الحديث في أعنةٍ مشرقةٍ وخيالٍ مجنح..

بادر نضال إلى السؤال الأول.. وهو يتطلّع إلى فرض وجهةٍ تناسب حال صديقه طارق..

– أستاذنا الكريم.. في آخر حوارٍ لنا.. فتحت لنا نافذةً قيّمةً جريئة، لاستبدال خارطة العالم في عقولنا..

– وأظن أنك سميتها " إعادة التأطير ".. وأنا فهمت منها أن نضع الأشياء أو المعاني أو الأحداث في إطار تفسيريٍ جديد مختلف.

– نعم.. سأضرب لكم مثلاً.. هل ترون في الإدمان حبّ، وفي الفضول المتطفل حبّ، وفي العادة حبّ؟

– أيّ فلسفة تلك، وأيّ منطق ذاك؟!

– المدمن تدفعه سطوة حاجة المادة المخدرة للتماهي مع كيميائيتها، وشديد الفضول يدفعه حبّ الاستطلاع والاكتشاف إلى مرابع الآخرين للتزيد من أخبارهم والاطلاع على أحوالهم، وعلى أعتاب العادة المستحكمة يقف المرء طويلاً مكبل اليدين لا يملك فكاكًا كعاشقٍ تأسره المحبّوبة.

– أنت تضفي الكثير من الرومانسية حتى على الجوانب السلبية من حياتنا، فهات لنا المزيد منها.

– القلق حبّ، لأنه يكون في دوائر محبّوباتنا وعليها، كأشخاص مقربين، أو أيام مستقبلية..

والأرق حبّ، لأنه مغازلة لاشعورية لقضايانا اللصيقة، واهتمام عاجز أو غير عاجز بشؤوننا الهامة..

– فما رأيك بالانتقام أو الجريمة؟

– الانتقام حبّ مدمرٌ عنيفٌ.. كان ذات يومٍ حبّا بلا حدود..

– حسنٌ.. فما رأيك بالسياسة؟

– السياسة حبّ للسلطة والتسلّط.. للحاكمية والتحكّم.. للرأس (من الجسد) والترأّس.. ولولا خصلة الرغبة في القيادة والقدرة عليها ما رأيت حاكمًا يسوس رعيةً أبدًا أو يتصدى لشؤونها.

– صحيح.. والفشل؟ لا أظنّك ستجد في الفشل ظلاً لحبّ ما.

– حين يستمر الفشل، أو يتكرر ولا تبذل قصار الجهد لتعديله أو مفارقته، رغبة في الفوز أو النجاح.. فإنك تكون محبّا لاواعيًا لقصور فهمك.. ولدعةٍ تهرب بها من مواجهة المطبات.

– لقد ألبست كل شيءٍ لبوس الحبّ.. وكأنك نزعت عن الحياة وجود صفة الشر..

– الخير والشر صنوان متلازمان من الأزل إلى الأبد، ولكلّ منهما صولته وجولته.

– فما رأيك بالحبّ ذاته؟

– باختصارٍ.. وبكلمتين لا غير.. هو الحياة..

– لقد أوجزت كثيرًا فما شفيت غليلنا ولا أسكتّ توقنا.. إن لك بالإسهاب باعًا طويلاً.. فهلّا جُدتَ علينا بالمزيد.

– لقد عملت ذات يومٍ استقراءً ضمَّ هذا السؤال بالتحديد وطلبت من شرائح مختلفة من الناس أن يكتبوا لي الإجابة الصريحة التي تنبع من شغاف قلوبهم.. وفي إجابات هؤلاء نتجاذب أطراف الحقيقة..

أجابتني مهندسة أن الاهتمام بالآخر، بكل تفاصيله.. هو الدليل الوحيد على الحبّ..

وعلّقت أخرى.. أنه العطاء دون انتظار المقابل..

أخبرتني خريجة من كلية الشريعة أن الحبّ شعور متبادل بين طرفين يستلزم الإخلاص والثقة والتضحية..

أما أحد أئمة المساجد فأجاب أنك عندما تحبّ شخصًا وأنت لا تعرف لماذا تحبّه.. فهذا هو الحبّ الحقيقي.

الحبّ بالنسبة لامرأة خمسينية متزوجة يعني الأسرة والاستقرار.

وبالنسبة لامرأة في السبعين من عمرها هو التقارب الروحي.

أما بالنسبة لرجلٍ يحتل مكانةً علمية مرموقة.. فقد كان جوابه أنّ الحبّ حرفان يضمّان كلّ شيءٍ في الحياة، بينما عكسهما ينفي وجود كلّ الأشياء، أو ينبئ عن نفادها وفنائها.. وأنّ كلّ موجودات الكون تنتظم فيما بينها بالحبّ.. على عكس الإنسان، الذي أفسح بابتعاده عن الحبّ المجال لصراعاتٍ وكراهيةٍ وحروب..

الكثير من العامة، أصروا على معناه المتعلق بحبّ الله وأنبيائه وكتبه..
والبعض منهم من نفى وجوده كقيمةٍ متداولةٍ بين الناس، واستعاضوا عنها بمسمياتٍ كثيرةٍ بديلة.. كقضية الاحترام .. وطاقة الاحتمال .. ومهارة الاحتيال وسطوة الاحتياج .. ورغبة الاحتساب .. وشهوة الاحتكار.. الخ.. ... .

كان رأي فتاة في عمر الصبا أن الحبّ تبادل المشاعر بين قلبين، أيّ قلبين، وهو ميزانٌ يعادل بين العقل والقلب لجعله حبّا حقيقيًا..

كان رأي رجل دين مسيحي أن من لا يحبّ، لا يعرف أن يصلي، ولا أن يتوجع، ولا أن يتوسل، ولا أن يصرخ..

وكان رأي طبيب متقدمٍ في العمر.. أن الحبّ هو أن تعشق روحًا سكنت روحك فما تعود قادرًا على الابتعاد عنها..

كان رأي طبيبة أسنان في العشرينات من عمرها.. أن الحبّ هو كل شيءٍ نريده ولا نحصل عليه.. وعندما نحصل عليه نفقد حبّنا له لأنه جاء في غير أوانه..

أحد أقربائي وهو ينتمي إلى أحد الأحزاب الاجتماعية السياسية أجابني أن الحبّ أن يفنى أحد الشريكين في الآخر وللآخر.. بعطاءٍ وعطاءٍ..

وعطاء.. وأظنّه كان يعني بالآخر أكثر من مجرد امرأة.. ولعله يعني مبدأً.. أو فكرًا.. أو وطنًا.. أو ربما طيفًا.. أيّ طيف!!!!

أما رأي بعض القريبات، فكان أن الحبّ.. هو أن تستطيع فَهْمَ من تحبّ من نبرة صوته حتى لو تظاهر أنه بخير، وأن تتجاهل إساءته ليس لأنك غير قادرٍ على ردّها، بل لأنك تحبّه..

الحبّ أن ترتدي ابتسامتك أمام من تحبّ لتزيل أحزانه، ولو أخفيت في قلبك الكثير من الجراح..

الحبّ أن تضع فتاة صغيرة كامل طاقتها لمجرد تدليك والدها..

أن تعطي الأم طفلها أفضل قطعة من الكعكة..

أن يمسك صديقك يدك، ويشدّ عليها بقوةٍ، لأن الطريق زلقة وخطرة..

أن يراسلك أحد ما ليطمئن على وصولك إلى مكانٍ ما خوفًا عليك..

أن يعرف الآخر معظم أو بعض الأشياء التي تدخل السعادة إلى قلبك..

الحبّ يكمن في أشياء صغيرةٍ جدًا، لكنها جميلةٌ جدًا..

كاطمئنان من حولي على صحتي..

كاتصال صديقةٍ لا تريد سوى أن تخبرني أنها مشتاقة لي..

كلمسةٍ حانيةٍ في لحظات ضعفي..

كوعود أصدقاء الطفولة بأنهم لن ينسوني أبدًا..

كضحك أخوتي معي على أشياء لا معنى لها..
كدعوات أمي لي، كلما رأتني..
كصبر أحبّابي عليّ في لحظات غضبي..
كإعطائك من تحبّ فسحة من الحرية والاستقلالية ليعيش إيقاعه الخاص به دون ملاحقةٍ أو تطفّل..
كابتسامةِ امتنانٍ من شخص أدخلت عليه شيئًا من الفرح.
هذا غيض من فيض..
وكأن للحبّ معانيَ عددها كعدد سكان الأرض.. كلٌ يراه بعينيه.. ويعبّر عنه بطريقته.. بل ويعيشه بمنطقه.
أنتم الآن أحد عشر شخصًا..
وأنا أجزم الآن بوجود أحد عشر رأيًا مختلفًا عنه ههنا..
– لكلٍ منا تجربته الخاصة التي تكوّن هذا الرأي..
– أنا يا صديقي.. أحبّ زوجتي، ولكنها لا تزال أنثى صغيرة.. لا تزال طفلةً، تتداخل براءة سلوكها وطيب عفويتها بفظاظة عدم النضج وحدّة الانفعال الطفولي، لذا فقد أدركت أن ثمن قلبها الصغير ومجاهل نفسها النائية سوف تكلفني الكثير من الصبر على مكاره الفاكهة الفجة.

– حسنًا تفعل بصبرك، فالحبّ يحتاج إلى العناية اليومية حتى يظل نابضًا.

– أنا أرى أن النقد يقتل الحبّ ويبدده.. إنه ليس الوسيلة المناسبة لدفع الشريك الآخر للتغيير نحو الأفضل..

– أنا أرى أنّ لحبّ الوطن سطوة على القلب لا تقاوم، إنّه يسكننا أكثر مما نسكنه، نتسع له، ليكون لكلّ مكوناته عشقٌ مختلف، ترابه وسماه، أحجاره وأشجاره، شوارعه ومبانيه، غلافه الجويّ والهواء الذي يحيط بنا، حدود أرضه وزواياه، مآذنه وأجراس كنائسه، قبابه الطينية وريفه النائي، علَمه الجميل ونشيده الحماسي، كلّ ما فيه، من بشر وحجر وصور.

– لحبّ الوطن ضريبة، كما لكلّ حبّ.. أن يبذل المرء كلّ وسعه في سبيل مجده وعزّه وفخاره.. أن يبدع ويتفوق ليعلي شأنه، نحن نكبر به كما يكبر بنا، ونرقى بتطوره كما يرقى بازدهارنا وتطورنا.

– أما أنا فأَعجب من قطعةٍ من اللحم والدم تسكن صدري.. تدهشني بضجيجها الحائر تارة وبصمتها الغريب تارة أخرى.. تترك فوق لساني العديد من التساؤلات، وترسم على شفاهي المزيد من إشارات الاستفهام.. أتساءل كيف لها أن تحمل أثقالاً هائلةً من الحزن أو الحبّ

دون أن يزداد ثقلها؟.. لماذا تحبّ هذا وتنأى عن ذاك؟ لماذا تشتعل الانفعالات فجأة وتنطفئ فجأة؟؟

– للقلب قوانينه الخاصة.. ومنطقه الخاص..

– هل تعتقد أننا دائمًا نحبّ من يستحق منا الحبّ؟

– لم أفهم ما تعني.. تقول "من يستحق " وهل لديك مواصفات لمن يستحق ومن لا يستحق؟

– بالطبع.. أنا أقصد.. أنه على العموم، العين تحبّ الجمال، والقاعدة هي أن الحسن هو من يأسر الألباب، بينما الاستثناء أن تجد من يترك زوجته الحسناء ليحبّ بعدها امرأة عادية أو ربما أقل من عادية، أو لعلك تجد من يحبّ رديء الطباع سيء التعامل، كما قد تحبّ من يؤذيك، ثم لا تتوقف عن حبّه رغم كل ما يسببه لك من شقاء.

– هو اللغز إذا..

– إنه منك وإليك.. يبدأ ههنا عندك، تعلوه بَصمَتُك المميزة، وطابعك الخاص.

– أنا أعتقد أن الحبّ يبدأ عندما نعتقد أننا قد صادفنا الشخص المنشود الذي ستتحقق به أحلامنا، وأنه الذي كنا نبحث عنه.

– وبعد ذلك، ومن خلال التقارب.. ثم التعامل.. وربما العيش مع ذلك المنشود خاصتنا، قد نصاب بخيباتٍ متكررةٍ تقصيه عنا، عندها يتلاشى اعتقادنا بكونه مناسبًا ومنشودًا.

– وينتهي الحبّ عندها؟!! لعله لم يكن حبّا؟

– أنا رأيي.. أنك إذا أحببّت فأنت تحبّ نفسك أولاً.. تستمتع بما يجتاحك من أحاسيس وأشواق.. وتتلذذ بما يسكبه الحبّ في قلبك من ذوقيات.. تسعد بانشغال فكرك بهذا المخلوق العابر الغريب.. وتُسرّ بخوض التجربة الشعورية الجديدة التي لم تعهدها من قبل.. تفرح إذ يسكنك أحدٌ ما.. وتتطاول الثقة في داخلك بأنك أهلٌ لأن تسكنه أنت بدورك..

أنت تحبّ.. ويقودك الغرور والطمع إلى حبّ الامتلاك.. امتلاك من تحبّ..

تحبّ.. وعلى قدر غرورك.. وجنونك، تكبر رغبتك في التملك.

انتهت جلسة الحوار المفتوح المجنّح.. وغادر الأصدقاء الحلبة الفكرية.. كلٌ إلى حياته الخاصة يمارس طقوسها وفق ما يمليه عليه فكره وقناعاته.. لكن الآراء ظلّت تتصارع بين الصديقين الحميمين.. طارق ونضال..

أصرّ نضال:

– يبدأ الحبّ بنفسك أولاً.. مروراً بمن تحبّ.. ثم يعود إليك متضخماً متعاظماً؟.. هكذا يبدأ الحبّ منك ثم يعود إليك.. وندّعي بعد ذلك أننا نحبّ من نحبّ.. يا له من ادّعاءٍ ك.. .. ..

– تقول ادّعاء؟؟!!

– قلت هذا رأيي.. وأنا لن أكذب هذه الكذبة على أحدٍ أبداً.. الحبّ عندي أسمى من أن تقصمه ادعاءات جوفاء.. وأروع من أن يفتك به غرورٌ أبله.

– وكيف تعيشه إذاً؟ أم أنك تعتبره وتراه خارج حدود الغلاف الجوي الأرضي.. هناك في الفضاء البعيد.

– أو تسخر يا طارق؟؟

– لا والله يا صديقي.. ولكن كلماتك بدت لي كطيفٍ من العالم الآخر.

وصمت نضال بإصرارٍ وتحدٍ.. محدقاً في عيني صديقه.. كانت نظراته العميقة قد غاصت في قعر الدهشة المؤلمة التي رانت على طارق.. وتصارع المعقول واللامعقول في سؤاله المباغت لنضال:

– نضال.. أنت تحبّ؟؟.. لابد أنك تحبّ.

وكمُدانٍ واجهه المحقق بأدلة دامغة على جرمه إلا أنه ظلّ يحارب حتى الرمق الأخير للتنصل من الجناية المنسوبة إليه.. تلفتّ بتهربٍ واضح مكشوف.. وقال وهو يحاول إخفاء ما يمكن إخفاؤه:

– قلت لك.. أنا لن أكذب هذه الكذبة على أحد أبداً.

– لعلك لن تكذب فعلاً.. ولكنك.. .. .

وهنا هبّ نضال واقفاً وقال بتعجل:

– إن كنت ستطيل الوقوف على الأطلال فاسمح لي بالذهاب إلى مدائني.

– وما مدائنك أيها الغامض المدهش؟؟

– أتحبّ الرحيل معي إليها؟؟

– أعرفها أولاً.. ثم أقرر..

– إنها عوالم معرفتي.. كتبي.. مشاريعي.. أمجاد تنتظرني.. آفاق تدعوني.. وأقواس نصرٍ أبنيها لبنة لبنة لأمرَّ من تحتها في ذات يوم.

– ستمرّ تحتها وحدك؟؟

تبسّم نضال من جديد، وقد أدرك مغزى الجملة الأخيرة وقال:

– لقد أصبحتَ يا صاحبي أسير فكرة ثابتة.. ويبدو أن جاذبيتها قد أغلقت عليك المنافذ.. فاهنأ بسجنك يا صاحبي.. وارسف بقيدك.. ولا تنسانا من الدعاء.

لوّح نضال يبده وولى مسرعاً.. تاركاً وراءه كياناً مأسوراً.. تدور خلاياه كلها في فلك واحد.

صاح طارق قبل ابتعاد صديقه مؤكداً:

– لن تهرب مني بهذه السهولة.. وللحديث بقية فانتظرني في المساء.

– حسن.. نلتقي إن شاء الله.. أنتظر زيارتك.. سأريك شيئًا.

*****

أحضر نضال صندوقًا خشبيًا مرصّعًا بالصدف والعاج..

سأل صديقه طارق:

– أتدري ما هذا؟ هذا صندوق أحلامي.. أروع صيدلية يمكن أن تخطر على بالك.. ألصقت على غطائه من الداخل شعاري.. المكون من أبيات من شعر الحكمة..

دواؤك.. فيك وما تشعر وداؤك.. منك.. وما تبصر

فما حاجة لك من خارجٍ وفكرك.. فيك.. وما تنظر
وتزعم أنـك جرمٌ صغـير وفيك انطوى العـالم الأكبر

أتعرف قائل الأبيات.. إنه ينسب لعليٍّ كرّم الله وجه.. وكما ترى فمن مئات القرون.. بل قبل ذلك بقرونٍ وقرون.. عُرف هذا العلم الإنساني التنموي الذي ينسبه الغرب لجهودهم بعد أن محّصوه ودرسوه وقنّنوه.. ثم وصل إلينا في التسعينيات من القرن العشرين..

– وما الذي يحويه صندوق أحلامك هذا؟

– كانت هذه من أهم نصائح الأستاذ صفوت لي.. أن أكتب على قصاصةِ ورقٍ ملونٍ حلمًا ما، مهما كان نوعه، أو حجمه، أو طبيعته.. كلما خطر ببالي حلمٌ أريد تحقيقه، أكتبه وبخطٍ جميلٍ على قصاصة وأضعه في الصندوق.. ولما بدأت الأوراق الملونة تكثر، بدأت أشعر بثقةٍ عارمةٍ، وطموحٍ وثّاب.. صارت أحلامي تربطني بالحياة وتشدني إلى أن أحولها إلى حقيقة.. صار لها صوتٌ رخيمٌ ينشد لي صباح مساء ألف دعوة للإبحار في خضم تحقيق الذات.. للإنجاز..

بالمناسبة هل ترى معي أن الإنجاز لون من ألوان الحبّ؟

أن تحقق كلَّ أو بعض ما تطمح إليه..

أن تزهر أمام عينيك براعم أحلامك، وتتفتح أقحوانًا.. أو ياسمينًا.. أو زنابق..

أن تكون أوقاتك متخمة بترفٍ ثقافٍ يرقى بك وبروحك إلى مصاف النبلاء..

أن تذهب كلّ ساعة من عمرك محمّلة بعبق مشروعٍ جميلٍ يطرح الخير أينما حل..

أن يكون لك رسالة تؤديها إلى أناسٍ حرموا لذة الحياة بانغماسهم في تكاليفها الباهظة..

أن تترك على جدار الأيام بصمةً لك.. أو ربما بصمات.. كما ترك العظماء يومًا..

أن تصنع صدقة جارية، تحمل على متنها نفعًا لأحدٍ ما..

مهما كانت الأحلام صغيرة، ستصنع فرقًا.. إن في حياتك أو في حياة الآخرين..

المهم أن نحلم.. ونحلم.. ونحلم..

وأن نعمل على تحقيق كلّ ذلك بجدٍ.. وصبرٍ.. وحبّ.

– لقد أعجبتني الفكرة تمامًا.. ولن يطول انتظارك حتى تجد لدي صندوق أحلام.

في الميزان

نظر طارق في المرآة.. نظر إلى نفسه وكأنه ينظر إليها للمرة الأولى.. أراد أن يتعرف عليها عن قرب.. أراد أن يقرأها من جديد.. أراد أن يضعها في ميزانٍ الثقة والقبول.

بسبب الحبّ، ندقق النظر في وجوهنا عندما ننظر إلى المرآة..

لعلنا نتمنى أن نكون أجمل مما نحن عليه.. أو لعلنا نشعر أننا قد أصبحنا أجمل فعلاً.. تتدفق مياه النضارة في عروقنا.. تحمرّ خدودنا خجلاً.. تزهو بشرتنا فرحًا.. نشرق ونتألق على نحوٍ خاص.. كقنديلٍ معلّق يتوهج ضوءُه..

بسبب الحبّ نتساءل إن كنا نبدو جميلين.. فيا لها من نقطة بداية لانطلاقةِ تساؤلٍ عذبٍ كهذا..

ترى هل ينبغي علينا أن نقع في الحبّ حتى نتساءل عن صورتنا الحقيقية؟!

تأمل ملامحه قليلاً.. ثم استدار وقد عزم على تناول الأمر بجديةٍ تامة.

الإنسان يتكامل بمحاوره الأساسية الأربعة جسدٍ وعقلٍ وقلبٍ وروح، فليتقصَ إذا مستوياتها.. باحثًا عن إحداثياته المتوفرة حاليًا، لعلّه يبذل الجهد لرفعها إلى أعلى مستوى ممكن ومتاح، طامحًا إلى الكمال، مع معرفته وعلمه يقينًا استحالة بلوغ ذروته.. ولكنه سيسدد ويقارب.

دقّق في شعره.. أأطول مما ينبغي أم أقصر؟؟ تذكّر شعر رامي ابن عمته عليا الذي ينتصب مثل عرف الديك متصلّباً بما يدهنه من زيوت ومثبتات.. إنه لا يحبّ هذا المظهر.. ولكن هذه هي الموضة على حد قول رامي.. فهل هذا ما يجعل الشاب أكثر جاذبيةً وتقبلاً؟.

نظر إلى شاربيه.. شكلهما.. كثافتهما.. إنهما مظهر من مظاهر الرجولة وهو يرغب في أن يكونا أنيقين تماماً.. فهل هما بحاجة إلى تشذيب؟

نظر إلى وجهه.. لون بشرته.. لون عينيه..

طاف فوق قسماته جزءاً جزءاً..

نظر إلى جسمه.. تفحص طوله.. استدار قليلاً.. عرض كتفيه.. تناسق عضلاته.. طول ساقيه..

تساءل في بهجة غامرة.. هل يمكنني أن أجذبها بمظهري.. لست من الرجال بالقصير.. لست سميناً.. أنا ممتلئ قليلاً وأظن أن هذا أفضل من

أن أكون هزيلاً.. ومع ذلك فسأقوم ببعض التمارين الرياضية لأحصل على اللياقة البدنية.. لابد أن أعتني بكل التفاصيل.. بكل شيء كي أكون جذاباً.. لم لا؟؟!! لا تثريب علي إن اعتنيت بجسدي فليس في الخطاب القرآني آية واحدة تحقر الجسد الإنساني أو تسمه بالدنِس، بل لقد دُعي الإنسان إلى التبصر في نفسه والتفكر في خلقه والاستجابة إلى مطالبه وحاجاته ضمن حدود المنهج الرباني.. بل وأكثر من ذلك، فقد أُمِرَ الإنسان بأخذ زينته عند كل مسجد، وعبّر الخطاب عن استحسانه اتخاذ الزينة حين نسبها الله إليه.. قائلاً:

"قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده ".. وفي هذا تشريف للممارسة الزينية.

فكر بأناقته.. بملابسه.. إنّ المظهر هو الخطوط الأولى للمواجهة مع الآخرين..

وهاجس الاعتراف من قبل الطرف الآخر هو الذي يحرّك هاجس اهتمام الإنسان بمظهره، لكن طارق لن يقف عند حدود الشكل والمظهر، ليقينه بأن الإنسان منظومة متكاملة من الداخل والخارج، وأن إنسانيته ترقى بقدر اكتمال وارتقاء الجانبين معًا.

راح يغوص في تجاويف عقله، فهو القارئ النهم بامتياز، لا يترك كتابًا يمرّ من تحت يده دون الاطلاع على محتواه كاملاً، ينوّع مطالعاته ليقطف ثمار الفكر المتنوعة.. بوصلته مقولة "اعرف شيئًا عن كلّ شيء.. وكلّ شيءٍ عن شيءٍ واحد" ليتناغم لديه التخصص في علمٍ ما، مع الانفتاح على أطياف المعرفة كلّها، ولتتجاور الشمولية بإزاء التفاصيل في رفوف فكره، ليكون بذلك حضوره غنيًا دسمًا أينما حلّ..

تساءل عن أدوات تفكيره وطريقته.. عن عقله الباطن الذي يندس في داخله كمارِدٍ مطيعٍ يمنحه عند الإيجابية الصريحة جوازات سفر إلى النجاح الحقيقي في الحياة.. راح يكتب كل صفاته الجيدة، واحدة.. اثنتان.. ثلاثة.. عشرة.. عشرون.. لقد أخبره الأستاذ صفوت أنها الطريقة المثلى للتقييم الصحيح والنظرة الصحية للذات، كتب أكثر.. كلّ ما يعرفه عن نفسه، وكلّ ما يتمنى أن يكون عليه، وكلّ ما سمعه من الآخرين.. كتب كلّ صفةٍ.. وكلّ شيءٍ.. وكأنه أراد أن يمتلئ بها، فيثقل ميزانه.. ويربح ذاته.

بعد ذلك عرّج على مستوى القلب.. غاص فيه قليلاً.. والقلب مستودع العواطف بنوعيها.. الطيبة كالألفة والحنان، واللئيمة كالحقد والقسوة.. وهو مقرّ الإيمان.. وللإيمان ألوان تناسب معتقداتٍ سليمةً كالحق أو

خاطئةً كالخرافة.. وهو أيضًا منبت الأخلاق وجذورها.. بحسنها ومكارمها أو شرّها وانحطاطها..

تساءل أين أنا من كلّ ذلك؟.. راح يفرد الأسئلة واحدًا.. واحدًا وكأنه في اختبارات نفسية وفق مقاييس عالمية.. ثم أخذ يجيب عنها بكلّ شفافية وصراحة.. فهو لن يخدع نفسه.. ولا يريد إلا تلمّسًا لكل حقائقه الداخلية.

أخيرًا طاف عند منابع الروح.. تلك اللطيفة التي تسكننا من أمر الله، وتستوي كصلةٍ مطلقةٍ.. خاصةٍ.. فرديةٍ.. لا يشترك فيها اثنان إطلاقًا، تمدنا بكوامن القوة والجمال، وتغمرنا بالسكينة واليقين.. تسمو بنا كلما ارتقينا منازل الرضا، وتسدد خطانا كلما تمسكنا بحبّال التسليم..

تساءل كيف هي تلك الصلة؟؟ أين هو منها؟؟ هل تشوبها شائبة نقمةٍ أو اعتراضٍ أو تذمرٍ؟ أم أنه يتقلب في نعمائها كملاذ؟.

يا لها من نقطةِ بدايةٍ جوهريةٍ، لانطلاقةِ البحث الجاد عن الذات..

ترى هل فعلاً ينبغي علينا أن نقع في الحبّ، حتى نتساءل عن هويتنا الحقيقية؟!

تساءل طارق عن هويته.. من هو؟ ماذا يتقن؟ ماهي مهاراته وقدراته وإمكانياته؟؟

ليصل في آخر المطاف إلى السؤال الأخطر..

" كيف يقدّم نفسه لمحبّوبته؟ "

تنامت التساؤلات في داخله على كلّ صعيد.. وراح يدقق في حقيقة المعاني..

هل يستطيع الرجل أن يحبّ امرأة دون أن يتزوجها؟.. هل يستطيع أن يتزوجها دون أن يحبّها؟

ما علاقة الحبّ بالزواج؟ وهل يفضي أحدهما إلى الآخر؟ أم أن للحبّ طقوسه الخاصة به؟

قد يطلب الرجل الزواج بأي امرأة يراها مناسبة ويكون اختيارها ابتداءً وفق معايير وأسس اجتماعية مسبقة تلائم الأسرتين.. وقد يحبّها فيما بعد وقد لا يحبّها.. وقد يعيشان بتفاهم وانسجام ومودة.. أو قد يعيشان بمجرد الالتزام المتبادل ما يسمح لكيان الأسرة بالاستمرار وحسب.

وماذا لو أحبّها أولاً ثم طلبها للزواج؟ فهل يكون في هذا ضمانة الاستقرار..

لكن بعض الزيجات المبنية على الحبّ تفشل.. فما الذي يفعله الحبّ عندئذ؟

وما يكون دوره عندما تتحطم العلاقة بين الزوجين وتنقلب إلى شظايا تغوص في قلب كل منهما؟!

وهل يبقى الحبّ موجوداً عندما يجرح أحدهما الآخر بقصدٍ أو بدون قصد؟

أيظل الحبّ حبّاً أم أنّه يصبح شيئاً آخر؟ هل الحبّ سلاح نخوض به معترك الحياة ونطلب به النصر والفوز.. أو أنّه مجرد عطرٍ يفوح فوق مساماتنا وثيابنا ليجعل حياتنا أجمل؟

هل يستطيع المرء أن يحبّ شخصين في وقت واحد؟!

عمه قاسم.. نذر عمره وقفاً على امرأةٍ.. غادرته باكراً وتركته وحيداً.. قد أقفل باب قلبه دون غيرها من النساء، وها هو قد تجاوز الستين وما يزال يذكرها، كالراحلة أول أمس..

أما جارهم أبو عدنان.. فإنه يدعي أن زواجه الأول من ابنة عمه كان بحكم العادة والعرف، وأنه لم يشعر معها أبداً بتلك المشاعر الحلوة الجياشة، التي سكنته عندما التقى بزميلته في العمل والتي جعلت منه عاشقاً صغيراً، وأعادته مراهقًا متيّمًا.. حتى جعلها زوجته الثانية.

*****

تعاظمت التساؤلات لديه وتنامت أبعادها.. راح يبحث عن الإجابات في كل مكان تكمن فيه.. سأل والدته التي اعتاد أن تملأ عقله وحياته بأفكار رائعةٍ مميزة..

– كيف كانت حياتك مع والدي؟ هل كنت تحبّينه؟

– كل الحبّ.. وأعظم الحبّ.. وأخلد الحبّ

– أما كانت المشاكل تحدث بينكما لتعكر صفو العيش؟

– ما من حياة زوجية إلا وتتقلب في أوقات عديدة، يغمر الانسجام بعضها، ويتخلل الخصام بعضها الآخر..

– وفي أوقات الخصام كيف كانت تسير الأمور؟.. كيف يتشاجر المحبّون؟

– كنت أطبق أحيانًا تقنية الاستجابة الإيجابية.

– وكيف هي؟

– سأحكي لك عن أحد المواقف المفصلية الهامة في حياتنا.. اختلفنا ذات يوم حول طريقة توجيه مصروف المنزل في أحد الأعياد، إذ كان يلزمنا الكثير من الحاجات الضرورية.. الرغبة في الانتصار، والاستعلاء، تحرك النفس البشرية غالبًا فترديها في مهاوي الخطأ والتسرع.. تشاجرنا

وبغضبٍ متبادل.. فأطلق والدك لسانه بحممٍ جارحةٍ ثم غادر المنزل.. وكانت لحظات مؤلمة ملأت سحابة يومي بالكثير من الهمّ والغمّ.

– وماذا فعلت حينذاك؟

– طبقت تلك التقنية الساحرة..

كنت أحتفظ بدفتر رسائل أنيق ومزركش.. كنت أتميّز غيظًا، وأغلي غضبًا.. ولهذا أمسكت بالقلم ورحت أكتب اعتذارًا شديد التوسل على لسان والدك:

" حبيبتي لبنى.. أنا آسف جدًا.. سامحيني.. أحبّك وأحترمك.. وأحرص بشدةٍ على عدم إيذاء مشاعرك.. لكن الضعف البشري قهرني واستل قيادتي، فأخطأت.. أعدك أن أتمكن من كبح لجام الغضب في قادم الأيام.. أعدك أن أحاول ضبط لساني وسلوكي.. أنا مثلك أؤمن أنّ الإنسان قادرٌ على تغيير نفسه نحو الأفضل، إن أراد ذلك.. وعلى قدر مرونة طباعه وتحكم وعيه، يتم التغيير سريعًا أو بطيئا.. تدريجيًا أو دفعة واحدة.. حبيبتي.. أكرر اعتذاري.. وأنا لا أخجل منه.. فالتراجع عن الخطأ فضيلة.. وهذا لا يشوب رجولتي بنقصٍ.. ولا يسيء إلى كرامتي.. لك حبّي.. الدائم.

المخلص حبيبك وزوجك "

بعدما أنهيت كتابة الرسالة.. عطّرتها.. ووضعتها في ظرفٍ ثم دسستها تحت باب غرفتنا..

– حقًا.. فعلت ذلك؟

– بني.. إن الصورة الذهنية التي نرسمها للأحداث التي تمر بنا تفعل فعلها وكأنها واقع حقيقيٌ.. سأكمل لك القصة.. تسلمت الرسالة.. فتحتها.. قرأتها.. ثم طرت بها فرحًا..

ورحت أكتب له الردّ خلف رسالته..

" حبيبي.. أنت تعتذر لي عما حصل؟؟ بل وتبالغ في الاعتذار؟؟ كيف لا أسامحك؟ لابد أنك لم تكن تقصد؟ أنا أعرف قدر طيبتك، ونبل أخلاقك، ورقي سلوكك.. أرجوك سامحني أنت أيضًا.. فأنا التي استفززتك على نحو سيء.. أجل يا زوجي العزيز.. في داخل كلّ منا وحشٌ صغيرٌ نائم.. ونحن الذين نوقظه بتصرفاتنا الغبية.. أنا أيضًا مدينة لك بالاعتذار..

لك حبّي الكبير..

المخلصةحبيبتك وزوجتك "

– وما الذي حصل بعد ذلك؟

– قمت إلى واجباتي المنزلية فقمت بها على أكمل وجهٍ، ثم أتممت زينتي، وأضفت بعض اللمسات الرومانسية في زوايا البيت.. وانتظرت عودته.

ولما عاد إلي.. كان تأثير المشاحنة الصباحية في نفسه قد زال أو كاد.. استقبلته بمزيد من الحنان والامتنان

– ألم تعودا إلى ما كنتما تختلفان عليه؟

– بلى.. ولكن بصورة مختلفة تمامًا.. كان أكثر هدوءًا، وروية وكنتُ أكثر حكمة واحتمالاً.. والتقينا في منتصف الطريق..

وعلى هذا المنوال سارت أيامنا بوعيٍ حقيقيٍ..

النساء شقائق الرجال.. هما كلاهما جناحا الحياة الزوجية.. ولابد أن يتوافق خفق الجناحين حتى يكون الطيران سليمًا والتحليق رائعًا..

الرجل والمرأة يكمل أحدهما الآخر.. هما نصفا الحياة..

وكلاهما سكنٌ للآخر.. وليتك تدرك ما في كلمة السكن من معانٍ إنسانية.. وكأن النفس تظلّ في قلق ومغالبة لنوازعها فلا تأنس بسكينة وأمان إلا لنصفها الآخر..

إبحارٌ فوق أشرعة الصداقة

نضال مرفأ الأفكار الشخصية عند طارق.. ميناء الأحاسيس المشرعة للإبحار.. هنا ترسو كلّ سفنه قبل أن تقلع أشرعتها باتجاه البحر.. يتقاسمان الفكرة والتحليل.. التخيل والفتوحات الفكرية.. أحلام اليقظة ومرح الأوقات.. يتناصفان الحياة والصداقة والمودة.. لهذا تطول اللقاءات بينهما، وتزهر الأحاديث.

– نضال.. أنا أشعر أنّ الحبّ واللاحبّ يتصارعان في داخلك.

– لا.. أبداً.. فقد حسمت الصراع لصالح اللاحبّ.

– لابد أنها تجربة قاسية إذاً.

– تجربة؟؟!! لا ليست اللفظة المناسبة.

– إذاً.. فهناك ما ترويه لي يا صاحبي.

–.. .. ..

– لقد أدركت أنّ لك سراً أيها الغامض المدهش.. صدقني.. لقد أدهشتني فلسفتك يوم أمس ورحت أغوص في معانيها، كباحث عن اللؤلؤ في قلب المحار.. رأيتها تمسّ الحقيقة في جانب من جوانبها ورأيتك بها تسافر في عوالم الأنا وحدها.. ولكن وجوه الحبّ كثيرة وخيوطه عديدة.

– أعود فأقول وأؤكد بأنها منك وإليك.

– وما بين منك وإليك.. تختلف ماهيته باختلاف الناس.. وتحمل هويته هوية القلب والعين والبصمات.

– ماذا تعني بهويته؟

– أعني أنّ كلّ قلب يحبّ بطريقته الخاصة.. فقلب يعطي بلا حدود.. وقلب يعطي ليأخذ فإن مُنِع أبى.. وقلب يعطي ويأخذ منصفاً تارة وجائراً تارة أخرى.

– دعني أُكمل عنك.. وقلب يأخذ ولا يهمّه إلا أن يرضي غروره النهم، تأسره فكرة التملك الأنانية فيمعن في تسلطه ويتعسف في نيل حقّه.

– طبعاً.. فلكلّ قاعدة استثناء.. والحالات الاستثنائية لا يمكن تعميمها أبداً.

– إن قصص الحبّ الخالدة ماهي إلا أسفار استثنائية نادرة خطّها البشر في ذاكرة الزمن.

– هذا صحيح.. وأظن أنّ لكلّ قلب كامل الحق في أن يكتب سفره الاستثنائي النادر.

– حسنٌ.. هيا فلتكتب سفرك يا طارق.. ولكن ما مدادك المفضل؟ دمعك.. أم دمك.. أم حبّر قلمك الأسود؟

– أكتبه بحروف من نور.

– على؟؟

– على صفحات ذاكرة من أحبّ.

– كيف؟

– تأخذ بيدي نيّة طاهرة وقصد شريف.. فأستأذن للدخول من الباب.

– فإن مُنِعتَ وكان الصدّ هو الجواب؟

– أعيد الأخذ بالأسباب.. وأصدق في الطلب.

– فإن مُنعتَ؟؟

– أتفاءل بالخير.. أصنع الفرص.. وأحاول تحقيق المستحيل.

– هذا الأمر بالذات يتعلق بأطراف كثيرة.. وليس قرار تتخذه لنفسك.

– سأحاول أن أحل هذه المعادلة الصعبة.. فإذا صرت الرجل المناسب الكفء بإمكانياته ومواصفاته أكون قد قطعت نصف الطريق.

– ويبقى النصف الباقي والأهم.

– تقصد أن تحبّني وتقبل بي.. أليس كذلك؟

– نعم.. هذا ما أقصد.. ذلك أنك تتحدث عن حبّ.. لا مجرد ارتباط تحكمه قوانين العرض والطلب وتنظمه أعراف وتقاليد.

– أنا أحبّها فعلاً.. وأريدها أن تحبّني.. نضال أجبني.. كيف يمتلك الرجل قلب امرأة؟ كيف يجعلها تحبّه؟

نظر نضال في عيني صديقه طارق وهو يبتسم ابتسامته الغامضة، كان بريقهما المشبوب يشعّ لهفة صادقة ورغبة حقيقية.. ولكنه قال في جمود:

– لن تعدم الوسيلة الصحيحة يا صديقي.. ولكنّ القدر يقول كلمته دائماً آخر الأمر.

– ما أكثر من صنعوا أقدارهم الطيبة بإصرارهم وبذلهم ووفائهم.

– وما أكثر من أُلقي بأحلامهم الطيبة هذه في عرض البحر الهائج.. أو في وجه الريح العاصف.. أو في.. ..

– مهلاً.. مهلاً.. لا تضع العصي في العجلات ولا تخبرني بحكايات الخائبين.

– ولكنها الحقيقة والواقع.

– آ.. آ.. أظنني عرفت سرّك أيها العاشق المتوحد.. يا صاحب القلب المتمرد على نفسه وعلى مشاعره وعلى منطق العاطفة.

– العاطفة عمومًا أحد جناحي الحياة.. لا يمكننا التحليق والطيران بدونه.. أما الحبّ تحديداً فهو اللغز الذي أقف عاجزاً أمامه.

– ولهذا تهرب من مواجهته.. وكأنك الفارس الذي لا يستطيع الانتصار ولا يطيق الانكسار.

– لأنني أريده ساطعاً كنور الشمس.. جميلاً كشعاع البدر.. بريئاً كضحكة رضيع.. طاهراً كمطر السماء..

– لقد تحولت إلى شاعر.. ما أعذب ما صنع الحبّ بفؤادك !!

– لا يا طارق.. أنا لا أدّعيه.. إنما أُخبرك بتحليلي الموضوعي له.

– لا تدّعيه؟؟ بل أنت لا تعترف به.. هذا شأنك ألا تعترف به ولكنني أراه يحيط بقلبك المتمرد، كالسلاسل التي أحاطت بجسد "كونتا كونتي" لحظة الأسر الأولى.

فوجئ نضال بالجملة الأخيرة.. وأراد الهروب منها فاعتدل في جلسته وقال:

– هناك بيتان من الشعر ألخص قناعتي فيهما فاسمعهما:

الأول: أنت الحبّيب ولكني أعوذ به

من أن أكون محبّاً .. غير محبّوب

الثاني: أنت القتيل بأيّ من أحبّته

فاخترلنفسك في الهوى من ترتضي

– أما أنا فأحبّ من الشعر:

الأول: لـولا المحبـة في جوانحـه

مـــا أصبح الإنسان إنسانا

الثاني: كلٌّ له ليلى ومن لم يلقها

فحيـــاته عبثٌ ومحضُ هباءِ

كلٌّ له ليلى يرى في حبّها

سرّ الدنى وحقيـقة الأشـيـاءِ

– نعم يا صديقي.. لقد أصبحت كلمة أو بالأحرى اسم " ليلى" رمزًا لعموم المحبّوبات.. والمثل القائل "كلٌ يغني على ليلاه " إشارة لاختلاف أهواء الناس وتنوّع ما يهوون ويحبّون ويرغبون.. والآن أخبرني ما اسم ليلاك؟

– رؤى..

– حسنٌ.. والآن أجبني ما الذي تعرفه عن رؤى؟؟ ما الذي تعرفه عنها حتى تحبّها؟؟ لا تقل لي أحبّتها وكفى.. ماذا لو كانت مرتبطة بشخص آخر؟؟

ماذا لو كانت وضيعة المنبت متخلفة البيئة؟؟ ماذا لو كانت سيئة الأخلاق.. عصبية المزاج.. صعبة المراس.. ماذا لو كانت..

– كفى.. أراك قد وضعت فيها كل مساوئ الدنيا.

– أنا لا أتهمها أبدًا بشيء من هذا، ولكنني أواجهك باحتمالات الواقع.. قد تسيء لك بشكل أو بآخر.. قد تكون مناسبة لك أو لا تكون.. فلم تبدأ الرحيل قبل أن تعرف معالم الطريق.

–.. .. ..

– طارق.. لم لا ترد علي؟؟

– أعترف أنني قد أحبّتها.. وهذا يكفي.

– لا.. لا يكفي.. إلا إذا أردت أن تعيش مغامرة الحبّ.. لا الحبّ نفسه.

– أتقصد بالمغامرة أنها مجهولة النهاية؟

– بل مجهولة البداية.. فلو بدأت ثم اكتشفت أنك في الطريق الخاطئة.. هل سترجع؟ أو ستكمل الرحلة؟؟

– أنت عقلاني مائة بالمئة.. والعواطف لا تقاس بالعقل.

– إن كنت تبحث عن حبّ ينتهي بك إلى زواج وأسرة، فاعلم أن الزواج ليس علاقة بين ذكر وأنثى فحسب.. إنه علاقة بين أسرتين.. بيئتين.. بل ودولتين.. و كم من المصاهرات الدولية في تاريخ البشر..

ألا تدري أن الملوك قد اتخذوا من زواج أبنائهم وبناتهم وسيلة لدعم الروابط بينهم وبين الممالك الأخرى.. هذا رمسيس الثاني يصاهر ملك الحثيين ليكون الزواج أشبه بالتوقيع على معاهدة صداقة وتعاون.. وهكذا فعل تحتمس الرابع، وأمنحتب الثالث، و أمنحتب الرابع، حين اتخذوا زوجات من بلاد بابل وميتاني..

كذلك ظهرت فكرة المصاهرة بين البيت الطولوني والبيت العباسي، بزواج أبي العباسي المعتضد من قطر الندى بنت خماوريه..

والناصر محمد بن قلاوون تزوج من الأميرة المغولية طلنباي حتى يمحو من ذاكرة المغول قسوة الشعور بمرارة هزيمتهم أمام جيش مصر.

وفي العصر الحديث تزوج الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء حاكم دبي من الأميرة هيا بنت ملك الأردن..

– أتراها يا صديقي زيجات موفقة؟ أَنتهى بعضها بطلاقٍ أو فراق؟ أم أنها استمرت وأثمرت.. وكما يقال.. عاشوا بثبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات.

– المهم أنّها في بدايتها كانت همزة وصلٍ طيبة، وخطوة إيجابية نافعة، وحلاً ناجعًا في وقته.

نهاية حبّ

عاد طارق من عمله ليجد الخالة الحبّيبة عفاف تجلس في غرفة الجلوس وهي تخفي وجهها بيديها وتنتحب..
أحاطها بذراعيه ملهوفًا وراح يمطرها بأسئلة تستوضح أمرها..
دخلت أمه تحمل صينية القهوة وهي تقول له:
– دعها يا بني.. سترتاح قليلاً ثم تخبرك بالقصة.. دعنا الآن نحتسي القهوة.. تفضلي يا أختاه.. اهدئي.. وحاولي أن تنسي.

*****

استعد طارق لسماع خالته مؤكدًا لها استعداده لمد يد العون لها ما أمكنه ذلك .. بعد برهةٍ من الوقت، هدأت الخالة المنكوبة وراحت تقصّ على ابن أختها ما بها.

– اسمع يا طارق حكايتي.. بعد سنوات من الانتظار.. من المحاولات العقيمة.. لم أفلح خلالها في الإنجاب، قرر زوجي أن يتزوج امرأة أخرى ابتغاء الولد.. ولم أشأ أن أحرمه من حقّه في أنْ يكون له أولاد، وتركت البيت الواسع الذي أثثناه سوية قطعة قطعة ليكون بيت عروسه الجديدة، فهو كما تعرف لا يملك غيره، وانتقلت للعيش في الشقة الصغيرة التي ورثتها عن جدك.

– أيّة تضحية تلك يا خالة؟!!

– كنت أحبّه يا طارق.. أحبّه من كلّ قلبي.. كان الهواء الذي أتنفّسه.. والنبض الذي يتردد في عروقي.. لم أكن أتخيل حياتي بدونه أبداً.. وكان هو يقنعني أني حبّه الأول والوحيد وأنني المرأة التي تسكن فؤاده وتتربع عرش قلبه.

– ألم يكن صادقاً في ذلك؟؟

– لقد كنت أصدقه.. أنا التي أرادت أن تصدق ذلك.. ورحت أعيش في ظلّ هذه الكلمات مستأنسة بها ومحتمية بصداها.

– وهل لمست التناقض بين كلماته وبين أفعاله وسلوكه؟

– كان لابد من ذلك.. فقد بدأت حياته الجديدة تأخذ أكثر من نصف وقته.. صار اهتمامه بالبيت الآخر.. بروابطه العائلية الجديدة وبحاجات

ولديه الصغيرين يتركني دائماً على هامش حياته.. أصبحت أشعر أثناء وجوده معي أنني أستعيره من أسرته لبعض الوقت.

– قاتلٌ هذا الشعور يا خالة، فالمثل الشعبي يقول " الثوب المعار لا يدوم، وإن دام لا يُشعر بالدفء ".

– صحيح.. ولهذا أحسّ دائماً أن أوصال قلبي ترتجف من البرد وأن روحي شبه عارية في صقيع الحياة.. أشعر بالوحدة القاتلة، ويتملك الخوف وعدم الثقة كلّ مشاعري تجاه كلّ ما ومن حولي، لم أعد أشعر بالأمان.. كمن يعيش في فوهة بركان.

– أفهم أنه لم يعدل بينكما؟؟

– هذا أمر طبيعي.. فالحاجات المتزايدة لأولاده ومطالبهم التي لا تنتهي، والواجبات المتلاحقة وظروف العمل.. كلّ ذلك.. لم يترك لي نصيباً لديه.

– وما الذي بقي لك عنده بعد كلّ هذا؟؟

– كلمات.. مجرد كلمات حلوة.. يدّعيها كلما أراد أن يخلد للهدوء.. هرباً من ضجيج حياته.

– كلمات يستنزف بها صبرك وتقبلك لهذا الوضع المائل؟!

– نعم.. كلمات حلوة صارت تجلدني أكثر مما تسعدني، وتشقيني أكثر مما تفرحني.. تتحول في فمه إلى شظايا تنغرس في قلبي كالحراب.. لقد أصبحت أكرهها وأكره سماعها.. أصبحت أشعر أن كل خلية في جسدي تصرخ في وجهه لتقول له " كاذب "..

وأجهشت عفاف بالبكاء من جديد..

كان إحساسها الشديد بالقهر يرشح من كلّ ذرة في كيانها.. قالت وهي تخفي وجهها بين يديها:

– لقد أحببت ولديه كثيراً.. قد تستغرب.. لكنني أحببتهما فعلاً، إلا أنّ أمهما رفضت بشكل قاطع هذا الحبّ.. تصوّر.. أنا أشتري لهما ألعاباً ثم أبقيها عندي مخافة رميها في القمامة.. إنها تمنعني من رؤيتهما وتسبب لزوجي الكثير من المشاكل بسببهما.

احتضن طارق خالته وهو يمسح بيده شعرها ويهدئ من روعها:

– اهدئي يا خالة.. اهدئي فلكلّ مشكلة حلّ.

– لم أعد أريد الاستمرار على هذا الحال.. لم أعد أقوى على الاحتمال.

– اهدئي يا خالتي.. فسنجد حلاً بإذن الله.

بكت عفاف بكاءً مريراً وتوزعت نظرات ابن أختها بينها وبين الأرض.. وساد صمتٌ مؤلمٌ حائر قطعته الأم بلهجتها الحنون وهي تقترب من أختها قائلةً:

– أختاه تعالي وتمددي في سريري.. تعالي يا حبّيبتي.. كفكفي دمعك.

سارت الأم بأختها المقهورة إلى غرفة النوم، وبقي طارق يجول بنظره الشارد المشتت فوق بلاط الغرفة.

هكذا إذا.. تتوقف الرحلة أحيانًا قبل اكتمالها.. نعجز عن متابعة المسير حين نصطدم بجدران العوائق، ورواسب العلائق.. حين تختلف توقعاتنا عن واقعنا..

الحبّ العملاق قد يتقزّم حين يكفّ عن كونه حبًّا.. ويتحول في قاموس الكلمات إلى مجرد حبرٍ على ورقٍ رسميٍ يعلن ارتباط ذكر بأنثى.. وآدم بحواء..

الحبّ العظيم قد يتلاشى.. أمّا كيف ولماذا؟ فبأيدينا تارةً.. من خلال اختيار ردّات فعلنا، وطرق تفاعلنا، أو بواسطة أقدارنا المكتوبة تارةً أخرى.. حيث لا مفر.. وتظلّ الإجابات الشافية معلّقةً على شفاه القدر..

أخذ يحدّث نفسه باستغراب وتألّم..

" خالتي؟؟!! أهذا ما آلت إليه؟؟!!" .

لقد كانت قصة الحبّ التي تجمعها بزوجها أسطورة حقيقية يشهد بها كل الأقارب.. كانت رمزاً لأجمل حبّ يجمع بين قلبين.. كنا نراه حبّاً عظيماً خالداً.. فأين هو الآن؟؟ هل ضاع في الزحمة؟؟ وهل تلاشى كضبابٍ سطعت عليه شمسٌ حارة؟ كنت أظنّه حبّلاً متيناً يشدّ عرى كيانين.. آهٍ.. ما أوهى خيوطه إذاً !! صدقت يا نضال.. صدقت.. فالحبّ هو اللغز المحيّر الذي تعجز عن حلّه أو فهمه عقول البشر الحائرة.. والآن.. كيف سأساعد هذه الخالة التعسة؟؟ كيف أنقذها من براثن هذا الهمّ الكبير؟ أم تراني أعمل على إنقاذ ذلك الحبّ الضائع؟ ذلك الحبّ الذي كان عظيماً في يومٍ ما.. أقول عظيماً؟؟ ولكن هل كان حقاً عظيماً؟؟!! وهل تساقطت عظمته أمام جدار الواقع المر، فما لبث أن انهار متحطماً؟ أو أنه كان وهماً.. مجرد وهم.. عاشت خالتي في ظلاله حقبة من الزمن قبل أن تظهر حقيقته المرة للعيان؟

وتكاثرت التساؤلات في عقل طارق حتى غلبته على نفسه فاستسلم لنومٍ مضطرب.. ومضت ليلة كئيبة قاتمة.

في اليوم التالي.. أشرقت شمس يومٍ آخر.. واستيقظ طارق مبكراً وقد نفض عن كاهله ثقل الأمس الحزين.. تمطّى.. فتح ذراعيه.. وتنفّس نفَساً عميقاً، ثم قال:

– " أصبحنا وأصبح الملك لله "

تلك الكلمات التي تفعل في نفسه فعل السحر.. الملك لله حقاً.. فماذا يملك هو؟ أو ما الذي يملكه غيره مهما كان غنياً؟ أوليس كلّ مُلْكٍ لا محالة زائل؟؟.. نعم.. الملك زائل.. وأصحاب الأملاك فانون.. والمتغيرات لا نهاية لها.. وتعاقب الليل والنهار وما يحدث بينهما عبرٌ وعظاتٌ لكلّ ذي لبٍّ.. ولا يبقى للإنسان إلا ما تكسب يداه، فإن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

هي ذي الكلمات التي يبدأ طارق نهاره بها عازماً أن يكون يومه دائماً خيراً من أمسه.. سارع كالعادة إلى صنع قهوة الصباح وقد أضاف فنجاناً ثالثاً للخالة عفاف.. تجاذب معها ومع أمه أطراف حديثٍ صباحيٍ هانئ.. ثم غادر المنزل إلى عمله بعد أن استنجز خالته وعداً أن تبقى عندهم حتى يجد حلاً لمعاناتها.

*****

مرّ أسبوعٌ لم يكتشف خلالها زوج الخالة غيابها عن منزلها بسبب عدم حضوره إليه هذه الفترة.. أما عفاف فكانت دموعها الباردة صديقة هذا الإهمال لها والانشغال عنها.

قالت لطارق:

– أرأيت يا بن أختي.. إنه لم يكتشف بعد غيابي عن منزلي.. لقد تركت له ورقة أخبره بها أني عند أختي.. ولكنه لم يقرأها حتى الآن.. لم يقرأها لأنه لم يأت بعد.

– هوّني عليك يا خالة.. فلكلّ مشكلةٍ حلّ، سأكون إلى جانبك وسأعمل كلّ جهدي لأن تنالي حقّك.

رنّ جرس الهاتف أخيراً لينقل إلى مسامع طارق صوت زوج الخالة سائلاً عنها..

– وعليكم السلام.. أهلاً يا عماه.. .. نعم.. نعم.. إنها هنا .. وأنا أطلب منك موعدًا قريبًا أراك فيه.

محاولة جادة

ذهب طارق إلى مكان عمل السيد وصفي زوج خالته متحيّناً من الوقت نهاية الدوام الرسمي..

عند الباب رأى زوج خالته يودّع فتاةً تقبّل يده قائلةً:

– إلى اللقاء يا خالي.. لا تتأخر علينا.. ماما اشتاقت لك كثيرًا.. ونحن بانتظارك غدًا مساءً.

مرّت الفتاة المغادرة بجواره..

أفسح لها الطريق، بانحناءةٍ خفيفةٍ.. وقد مرّت ملامحها السريعة كنسمةٍ باردةٍ تلفح الوجه وتلسعه..

رؤى!!!!! أَ هي من مرت أمامه؟ أم أنّ عينيه العاشقتين وجدت في صورة الفتاة صورةً لها؟؟!!

يا لها من صدفة.. دارت به الأرض حين عرف أن زوج خالته هو خال رؤى.. لم يكن يعلم.. يا لها من صدفة غريبة حقًا.. صدمت مشاعره ولم يعد يدري هل صارت الأمور أسهل أو أصعب؟

كانت مهمة محددة تلك التي ذهبت به إلى هناك.. ولكن القدر كان بانتظاره ليفاجئه.. أو.. ربما ليفجعه..

استقبله زوج الخالة قائلاً:

– أهلاً بك يا طارق.. كيف حال خالتك عفاف؟ ألن ينتهي اعتصامها في منزلكم؟ ألن تعود إلى بيتها؟ لقد اشتقت إليها.

كان سؤال السيد وصفي عن زوجته مشبعاً بالحنان ومفعماً بالرقة.. كان كما عهده دائماً دافئاً هادئاً رزينًا.. لا تخرجه الأحداث عن وقاره ولا يدفعه الغضب إلى الزلل أو الإساءة.. لذا فقد استرخت أعصاب طارق وشعر بأن مهمته في معالجة شأن الخالة سهلة غير مستحيلة.. قال وقد بلغ به التأثر كلّ حدّ:

– إنها في غاية الحزن يا عمي.. فهل نحن قادرون على التخفيف عنها وإزالة كربها؟

– صدّقني يا بني.. أنا أعترف بتقصيري تجاهها ولكن ما باليد حيلة.. فالظروف حولي قاهرة في كثير من الأحيان.

– اعذرني يا عماه.. ولكن هذا ليس عدلاً.

– وهل تظنّ أنّ تطبيق البشر للعدل أمر سهل؟ لا والله.. ولو تحريناه بصدقٍ وطلبناه بحقّ.

– ولكن الإحساس بالظلم قهرٌ مدمّر.

– أنا حزين من أجلها.. وأحاول جاهداً عدم إيذاء مشاعرها.. لكن الواقع المفروض أقوى مني ومنها.

– والحلّ يا عمي؟؟؟

– طلبت منها الصبر لعلّ تغييرًا ما يحدث في حياتي، يعينني على إعادة التوازن إلى حياتنا، ولكنها رفضت.

– أ هو انتظار في المدى المنظور، أم تسويف لطارئ قد لا يحصل أبدًا من تلقاء نفسه؟؟

– لا أدري يا بني.. فأنا محكومٌ بأقدارٍ أقوى مني.. أرجوك احمل عني رجائي إليها أن تعطيني فرصة أخرى.

*****

حمل طارق إلى الخالة عفاف رجاء زوجها الصادق بتحمله والصبر على ظروفه، وراح يعمل جاهدًا على إقناعها بإعادة المياه إلى مجاريها، كان يرغب في استعادة خالته جمال وكمال العلاقة مع زوجها، أراد أن يوفق بينهما من جديد، أن يسكب ترياق الحياة في عروق حبّ مائت، لعله يحيا مرة أخرى، أراد أن يكون لها دورًا استثنائيًا في حبّه لرؤى، أن تتجدد به ويتجدد بها، أخبرها أن التقبل هو أحد مفاتيح العلاقات السعيدة، تقبل الآخر كما هو، وعلى ما هو عليه، وأنه من الموضوعية والواقعية ألا تتوقع كل الخصال الحميدة في شخص واحد، وأن ميزات زوجها تفوق كثيرًا ما يمكن أن يسميه سلبيات.

اعترفت عفاف بذلك فعلاً، وهي تدرك تمامًا أنها تخسر زوجًا كان رائعًا بكل المقاييس في ذات يوم، ولكنها اليوم لم تعد تستطيع الاستمرار معه، أجابته بهدوء واثق:

– جرحي به غير قابل للشفاء، والجرح الذي لا نتعلم منه نستحقه من جديد، لقد علمتني الحياة ألا أفعل المستحيل من أجل من لم يفعل من أجلي الممكن، والاستحالة اليوم تنبع من كونه لم يعد لي.

على حافة الهاوية

كان طارق يرتجف دون قصدٍ وهو يغالب أعصابًا خائنة.. ولكننا.. مع الأصدقاء الصدوقين نفتح جراحنا دون خوف.. نفكر بصوتٍ مرتفعٍ قد يصل إلى حد الجنون.. ننشر قلوع سفننا ونبحر في العاصفة ونحن نتمسك بصواري صداقتهم.. صرخ طارق متألمًا:

– نضال.. أقول لك إنها ابنة أخته.. أتفهمني؟ إن العلاقة بينه وبين خالتي في أسوأ حالاتها هذه الأيام.. ورؤى.. رؤاي الوحيدة الآسرة ابنة أخته.. فماذا أفعل؟؟

–.. .. ..

– نضال.. لقد عذّب خال رؤى خالتي سنين طويلة _ بقصدٍ أو بدون قصدٍ _ لا أدري.. المهم أنه قد سبب لها جراحاتٍ كثيرة ولم يكن قادراً على إسعادها مؤخراً.. بل لقد أشقاها إلى حدٍّ كبير.. لا أعرف كيف أشرح لك؟ كانا عاشقين.. أروع عاشقين في العائلة.. من أجلهما

وبسببهما أحبّبتُ الحبّ وتزيّنتْ لي صورته بأبهى حلة.. لا أعرف كيف أصف ما حدث؟؟ لقد جرحها مؤخراً.. عذّبها.. غدر بها.. وحوّل أيامها إلى جحيم..

والآن.. رؤايَ ابنة أخته.. إنها كارثة يا نضال.. لِمَ لا تحب؟ لماذا تصمت؟؟

– هدّئ من روعك يا صاحبي.. فلا تزر وازرة وزر أخرى.

– أعرف ذلك.. ولكن كيف سأطلب من خالتي أن تكون إلى جواري في هذا الاختيار؟! كيف ستفرح لي وجراحها تنزف؟ كيف سأمدّ يدي إلى قاتل خالتي وقاتل الروح لا تدري به البشر.

– أرأيت؟ لولا الحبّ لكان الاختيار أسهل.

– تقصد اختيار فتاة أخرى؟؟

– بالعقل.. وبشروط مناسبة لكل الأطراف.

– وقلبي؟؟؟

– لقد اختار قلبك الإبحار الصعب.. ولقد نصحتك أن تقفل النافذة التي تأتيك منها الريح العاصفة.

– أيها المتمرد العاشق..

– دعك من التشفّي بوصفي.. وابحث عن طوق نجاتك.

– لابدّ أن أجده.. .وبالحبّ سأجده.

– إذاً.. فأنت العاشق المتمرد.. ها أنت قد اخترت الصراع.

– نضال.. الآن لاح لي أنك قد اخترت الهروب أمام الصراع ذات يوم.. ألقيت سلاحك ولُذت بالفرار.. ولم تزل هارباً.. لم تزل.

وبعينين عميقتين.. صامتتين.. تبوحان ولا تبوحان.. نظر نضال إلى صديقه الحائر العاثر وقال بلهجةٍ باردةٍ:

– دعنا نبحث سوية عن طوق نجاتك، فأنا أريد أن أساعدك.

وراح الصديقان يقلبان وجهات النظر ويبحثان عن كل الاحتمالات الممكنة للحل.

وعلى الضفة الأخرى للأمر.. كانت عفاف تستعد للشفاء من شقائها.

ما قبل الشفاء

دخل طارق على خالته فوجدها تقرأ في دفتر مذكراتها.. كانت كالغارقة في غيبوبة من الصمت والحزن.. اقترب منها متنحنحًا:

– ماذا تقرأ الخالة الحبيبة؟

– كلمات اعتصرها القلب فوق صفحات هذا الدفتر فسالت دموعًا وحروفًا.. أنا أقرؤها للمرة الأخيرة، لأنني سأحرقها غدًا.

– هل تسمحين لي بالاطلاع على بعضها؟

– بالطبع يا عزيزي.. فليس لدي أسرار أخفيها عنك، ولكني أشفق عليك من إيلامها وقسوتها.. فهي عصارة نفسٍ محطمةٍ.. والنفس البشرية كالزجاج لا تجرح إلا إذا تحطمت..

قبّلَ طارق خالته من جبينها بحنان الولد الذي يحنّ على والدته.. ثم راح يقرأ العنوان..

أيام على قارعة الجحيم

في لغة باردة ميتة، أبحث عن المفردات لأدون أسفي، وغيظي، ونفوري.. أبحث عن الكلمات الأكثر دقة لأمس بها وتر الحقيقة.. والحقيقة مرّة، والواقع أمرّ.. وفي زمن السقوط.. لا رحمة.. ولا عزاء.

*** قتلتني الحروف الثلاثة.. ك.. ر.. هـ.. على حدّها نزفت دمي.. وعمري.. وكياني.. وبها بدأت الرحيل إلى الموت.. والموت أرحم المصائب.. بها كتبت حتفي، وكيفية موتي.. ولأن الأعمار بيد الله.. فقد بتُّ أموت بها.. في كل يوم ألف مرة.

*** كلما أعطيت حلمي جرعة من ترياق الحياة.. من دواء الصبر والأمل.. كلما حاولت أن أعيشه بحرّيةٍ.. وصدقٍ.. يسقط قتيلاً.. مضرجًا بدمه.. باردًا كجثةٍ هامدة.. فأفزع.. ويخنقني رعبي.. آه.. لقد جنيتُ على حلمي.

*** لقد كرهت دوري.. والمسرحية طالت.. وأحداث القصة لما تنتهِ.. لقد كرهت دوري.. وبت أحتقر نفسي.. إنسانيتي.. وأنوثتي.. أحتقر ذاتي وهي ترفل خانعة في أصفاد الرقّ المقنع.

**** ملامح قهرٍ وقسمات عذاب ترتسم جميعًا في دفتري الصغير.. آنًا بعد آن.. وصورةً بعد صورةٍ.. بعد صورة.

*** مراكب العودة احترقت.. فهل إلى الرجوع من سبيل؟ أحرقتها نيران الغضب الدائم، وألسنة لهب الشك والغيرة والأنانية.. هي أعاصير مدمرة.. وزوابع هائلة.. قتلت كل حيّ.. وأحرقت كل أخضر.. هي ضغوط كبيرة وكثيرة.. وجهود مؤلمة ومؤثرة.. كسرت حدّ المرونة.. فهل إلى الرجوع من سبيل؟؟؟.

رفع طارق إلى وجه خالته عينين غامت فيهما دموع حانية، قال لها مشفقًا:

– ما أقسى كلماتك هذه! أعلم أنك قد عشت ما هو أقسى منها حتى تحدرت منك مرّة مؤلمة.

– أرأيت؟!! إنها فعلاً أيام على قارعة الجحيم.. أيام كان يرحل فيها دائمًا تاركًا ملابسه على علّاقة الثياب تنسدل جامدة لا روح فيها، يغادرني ليمارس الحياة مع امرأة أخرى، وفي ليالي وحدتي كنت أقترب منها لأتلمّسها وأشتمّ رائحتها، محاولة أن أجد في ملمسها أُنسًا ما، فإذا بها تصرخ بي وتقول لي " إنه هناك، يحتضن الأخرى " فأكرهه وأكرهها.

– وماذا بعد يا خالة؟

– لكل شيء نهاية.. وكل حال يزول.. صدقني يا بني لقد تعلمت من التجربة أكثر ما أستطيع، أنا لن أظل هنا عند أسوار المصيبة، لن أقف

طويلاً على الأطلال، لن تتوقف رحلة حياتي فالتوقف يعني الموت، أعدك أن أُشفى وأن أُبعث من رماد شقائي كطائر الفينيق، وستجدني امرأة أخرى..

لكن وكالخروج من عنق الزجاجة.. يتطلب الأمر وقتًا..

ثمة ضوءٌ واعدٌ في نهاية النفق المظلم.. مهما كان طويلاً..

قد نرتطم بجدرانه كلما أسرعنا، ونتعثر بمطباته إذا استعجلنا.. ولكن متعة الخروج من المآزق تنسينا آلام الارتطام والتعثر، ولهفة الوصول إلى نجاةٍ أو فسحةٍ تمحو إحساسنا بما يعترضنا من مكاره.. وكلما امتلكنا الإرادة الصلبة، والعزم الحقيقي، نخرج من ضيق مآسينا وتعاستنا إلى رحبّ الحياة.. الأمر يتطلب مجرد وقت، وعزم، و.. .. .. .حبّ.

لحظة الانتصار

دخلت عفاف غرفة نومها المهجورة منذ أسابيع، نظرت إلى السرير المفروش بملاءة مطرزة بخيط القصب الذهبي.. سرير لم تنم فيه مع زوجها منذ فترة طويلة، حدقت في أرجاء الغرفة الباردة طويلاً فاستوقفتها العبارات المنمقة المكتوبة بقلم أحمر الشفاه على المرايا " أحبّك حتى آخر يومٍ في حياتي "، " معًا إلى آخر العمر "، " كل عامٍ وأنت حبّيبتي "، كانت هذه وعوده في عيد زواجهما العاشر، نقش كلماته الحميمية على المرآة عهدًا ووعدًا وحبّا.

صاحت مقهورة: كاذب.. كاذب.. كاذب.ولفرط حزنها رفعت يدها لتحطم المرآة والكلمات والذكريات، إلا أن نورًا حقيقيًا أشرق في وعيها فجأة ليمسكها عن التهور، هامسًا في داخلها "ستهشمين يدك، فمن ذا الذي سيتألم غيرك " نظرت إلى يدها وتخيلتها مضمّدة بالشاش الأبيض فوق جراحٍ عميقةٍ، وقد انتزعت منها شظايا البلور المكسور، ضمّت

يدها إلى صدرها برأفةٍ وحنان وابتسمت ساخرة من حماقة كادت أن ترتكبها في حقّ نفسها.

همست منتشيةً بخفةِ من نجا من خطرٍ محقّق:

" لن يكسرني الحزن مرة أخرى.. لن أنهار ثانية.. لن أفقد توازني، ولن أتحامق، فأنا الأقوى.. نعم.. أنا قوية بما يكفي لأحمي نفسي ولأصنع قدري ".. وقررت أن تفعّل قوتها الإيجابية فذهبت إلى المطبخ بهدوءٍ غامرٍ وعادت بأدوات التنظيف لتمسح أحمر الشفاه المكتوب فوق المرآة.

كانت تحتفظ به أيقونة فرحٍ مخبأ في طيات الغيب، وتعده بالانتظار، لكنها اليوم تعلن وقف نزيف الروح وتدعمه بالانتصار.

جميلٌ أن نبني في أذهاننا أقواس نصرٍ مؤكد، ونعبر من خلالها إلى عوالم مسرتنا، وشفائنا..

رائعٌ أن نعي.. لنتحكم.. لنقرر على الأقل شكل النهاية إذا لم يكن بأيدينا قرار البداية..

اجتمع إيمانها بالقدر مع رضاها وتسليمها بما كتب الله لها، وزاد من قوتها ذلك البرنامج المتخصص في التنمية البشرية الذي تابعت جميع حلقاته وهو يعزز في النفس القدرة على البدء من جديد في كل وقتٍ وآن،

يحشد لها قواها ويعينها على امتصاص صدمات الحياة كما يمتص الماء حجرًا ألقي فيه، فيضطرب زمنًا ثم يعود سيرته الأولى.

كانت لعبة التخيل الذهني إحدى أروع الألعاب التي أثمرت لديها تغييرًا حقيقيًا في حياتها، إذ نصحها مدرب الدورة أن تنسف قطار الندم ففعلت، تخيلت قطار الندم ووضعت في كل عربة من عرباته حماقة اقترفتها، أو خطأ ارتكبته، أو موقفًا سلبيًا اختارته، أو قرارًا غير ناضجٍ اتخذته، أو عذابًا تسببت به لنفسها، أو عاطفة متهورةً شعرت بها .. بعد ذلك تخيلت قطارها المزعوم يمشي فوق سكة مبتورة تودي به إلى قعر وادٍ سحيق، أغمضت عينيها لترى العربات تتهاوى الواحدة تلو الأخرى وصوت طقطقة ارتطامها بصخوره وتحطمها تملأ المكان، في نهاية اللعبة ساد صمت ثقيل بترته بقيامها إلى الأوراق التي كتبت فيها كل حمولات قطارها وبالتفصيل، كان عليها أن تمزقها إربًا وأن تلقي بقصاصاتها تلك في أتون نار المدفأة.

فعلت كلّ ذلك، وهي تدرك أنها باتت كالجرّاح الذي يجري عملية استئصالٍ ضروريةٍ لإنقاذ الحياة .. قالت بسعادةٍ غامرة:

" اليوم أنا شفيت.. اليوم أنا أبدأ من جديد.. اليوم أنا إنسانة أخرى ".

قصة المتمرد العاشق

يحدث كثيرًا أن يفهم الأصدقاء بعضهم بعضًا دون حاجة لمزيد من الشرح والإيضاح.. وتبقى الكلمات التي تقال بعد ذلك توقيعًا لطيفًا يذيّل صفحة إهداء..

واجه طارق نضال بمباغتةٍ ذكيةٍ نافدة الصبر:

– أنا أستطيع أن أقرأك مثل كتاب، ولكني أفضل أن أسمعك حروف قصيدةٍ غزليةٍ تنساب من فم شاعرٍ عاشق.. واعلم أن جهلي بالتفاصيل لا يمكّنك من إنكار حدوث ما حدث.

ولأننا نحبّ رفاق العمر.. ونكتسي بهم حلةً موشاةً بزخارف الامتنان والتعاطف والمرح، فقد قرر نضال أخيرًا أن يفكّ أسر حكايته المخبأة منذ أمد.. أخيرًا استجاب لصديقه طارق ولبّى رجاءه في أن يزيل دهشته ويشبع فضوله.. أمسك كوب القهوة واحتسى بضع قطراتٍ ثم راح يسرد قائلاً:

– كانت أيام السنوات الثلاث الأولى من الجامعة هادئة رتيبة.. لا يعتريها ما يعكر صفوها أبدًا.. حتى انتقلت إلى السنة الرابعة.. وإذ بفتاة راسبة من الدفعة السابقة.

صار يتغلغل حضورها وتواجدها على المدرج في أجزاء كياني ويمزّق غيابها صفاء يومي.. لم يكن تعاملنا مباشرًا أول الأمر..

كنت أراها تتصرف بعفوية صادقة وتلقائية محترمة.. كنت أسمعها تتحاور مع صديقاتها أو تبادلهم أطراف الحديث بلغتها الراقية عالية التهذيب.. لقد كان أمامي عينات مختلفة من الشخصيات والطباع والأمزجة، تساوي عدد الزميلات في دفعتنا.. يتمايزن فيما بينهن، كلٌّ منهن على قدرها من السطحية أو العمق..

عشت ذات يوم لحظة الاعتراف الأول.. يوم نطقت بتلك الكلمة، تلك الكلمة التي تجعلك على مفترق طرق، يوم اعترفت لها بأني أحبّها، لقد سبقته باقات الورد وبعض التذكارات الصغيرة التي أخذت أمكنتها عرضًا فوق رفوف المكتبة أو بين دفتي كتاب، لقد تقدّمته عبارات مجاملةٍ بدائيةٍ دافئة، وألفاظ غزلٍ خجول، ومواقف من الاهتمام الحقيقي، لقد سبقته مبادرات حلوة إلى لقاءات خاطفةٍ تنصبُّ العين فيها على مساحات وجهها الملائكي، وتتمرّغ فوقه كرأس طفلٍ يتمرّغ فوق صدر أمه، لقد

تفنّنت في التعبير عن ذاتي وعن عاطفتي الساكنة في زمن ما قبل التأجيج..

لقد طالت مقدّماتي كثيرًا وضخُمَ سِفر غزواتي إلى قلبها المتمنّع، طال حصاري لقلاع عنفوانها فتهاوت الواحدة تلو الأخرى أمام جحافل حبّي الجرّارة مستسلمةً، تمنحه مفاتيحها تباعًا..

في ذلك اليوم واجهت لحظة الاعتراف الأول بالحبّ.. ووحده الحبّ يختلس من كلّ العاطفات أسرار التواصل والوصول.. وحده الحبّ يشارك كل المشاعر بهجة الاحتفال بالآخر، ويقتسم معها ذرا الانغماس في متعة البوح.

ومرت أيامٌ.. بل شهورٌ لم تكن لؤلؤتي بالنسبة لي إلا الهواء الذي أتنفسه.. نفسًا.. نفَسًا..

نلتقي في ساحات الجامعة وعلى مدرجاتها ونرسم أيامنا المستقبلية ونخطط لحياتنا المشتركة.. بنينا معًا بيتنا المزعوم وأثثناه بأفخر الأثاث، وملأنا جنباته بنباتات الزينة وشجيرات الورد والياسمين.. قررنا أسماء أطفالنا وعددهم وما سنلبسهم وأين يدرسون وكيف ننمي مواهبهم ومهاراتهم.. ولقد زاد تفاهمنا وانسجامنا العلاقة بيننا قوة ومتانة وحبّا..

إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم، يوم تلقينا دعوة صديقتها لعيد ميلادها المدبر.

في تلك اللحظة تهاوت أمام عيني أشياء كثيرة، تحطمت، تساقطت أحاسيس وأفكار مثل ورق خريفي مائت، كانت المتعة المحرمة واللذة الآثمة في متناول يدي، في ذلك اليوم تبرّجتْ أكثر مما ينبغي، تجرأت أكثر مما ينبغي، اقتربت كثيرًا، اقتربت أكثر مما ينبغي، لتهبني – كما زعمت في حينها — حبّا كبيرًا .

علّق طارق مازحًا:

– اقتربت وقالت هيت لك..؟؟؟

لم يأبه نضال بتعليقات صديقه وكأنه لم يسمعها..

– تصارعت الأفكار في رأسي، تدافعت بضراوةٍ نوازعي، تجاذبتني قوىً عظيمة متناقضة، قوة الأنوثة الطاغية، والعاطفة المتأججة، والشهوة المستثارة الجامحة.

– طبعًا يا صديقي فالإنسان كما يقول بعض الفلاسفة هو كائن الرغبة بامتياز.

– لا أدري كيف رأيتها متعة رخيصة، لا أعرف كيف انقلب جمالها قبحًا، أغمضت عيوني لأوقف ضجيج جسدها، تراخت يداي عن لمس

كائنٍ هو الأحبّ بلا منازع، ثم أدرت ظهري عنها لأقطع سلاسل عبودية الرغبة التي كانت تلتف حول عنقي.

– وماذا بعد أيها اليوسفي المعاصر؟؟

صمت نضال قليلاً وهو يمعن التحديق في عيني صديقه دون تأثرٍ ملحوظٍ بعبارته الأخيرة وقد جمدت ملامحه تمامًا وكأنه وجه رجلٍ آليٍ.. ثم تابع:

– ابتعدت قليلاً وقد أحسست بطعنةٍ تهوي في صدري.. كان توسل عينيها ينغرس حرابًا في قلبي، وحياء جرأتها على هذا الإغراء المقصود ينشب رأسه كأفعى شعرت بخطرٍ محدق.. لبرهة لا أعرف مداها تجمد كلّ شيءٍ ما عدا الوخز الملحّ في داخلي.. تسمّرت قدماي في الأرض كجبلين راسخين.. لم أقو على الحراك مع أنني كنت ذهنيًا أعدو بسرعة مخيفة جدًا، وما إن تخلصت من قبضة كابوس الرغبة حتى أطلقت لخطواتي عنان الهروب.

لقد كانت اللحظة مريعة إلى حد كبير.. إلا أن ما بعدها كان أشد إيلامًا..

فررت منها.. من فخٍ شيطاني عرفت فيما بعد أنه من تدبير رفيقة سوء، أوهمتها أنّ ذلك سيشدني إليها بأصفاد دائمة.. فررت إلى الله.. فررت يا طارق.. .وما زلت فارًّا حتى الآن..

كان في استرجاعه لما حدث استغراقٌ كاملٌ عن حاضره، كان يسرد باسترسال وكأنه يشاهد لقطات من فيلمٍ تلفزيونيٍ لم تتخلله وقفاتٌ إعلانية ولم يبتره انقطاع التيار الكهربائي، ولعل إخفاؤه لهذه الحادثة الأليمة طيلة هذه المدة قد جعل منه طاقة مكبوتة تفرغت حين وجدت لها منفذًا ما.

بعد لحظات من الصمت المتعمد من كلا الصديقين، استرسل نضال في سرد حكايته المريرة:

– بعد تلك الحادثة.. عشت صراعات رهيبة بين النداءات المتباينة، نداء الحبّ ونداء العقل، نداء الرغبة ونداء العفة، نداء النور ونداء الجهالة، نداء الغواية ونداء الخشية، نداء ماضٍ عشته معها ونداء مستقبل أردته لها.

– يا له من صراع.. الانتصار فيه ينطوي على انكسارات من نوع آخر.

– صحيح أني قد عشته وعيوني مفتوحة، متطلعة إلى السماء، إلا أن روعة ذاك الحبّ وفداحة خسارتي له آلمتني إلى أبعد الحدود.. لم يكن

بالأمر السهل، ولكنني كنت كمن يطفو إلى السطح، أو كمن يُنتشل من قاع غرقٍ أكيد.

– ولكن.. أما كان بالإمكان إعادة المياه إلى مجاريها؟ أما كان بالإمكان إصلاح ما انكسر؟!!

– أبدًا.. أبدًا.. ألا تعرف الأشياء الثلاثة التي لا تعود أبدًا؟ الثقة إذا فقدت، والكلمة إذا خرجت، والماضي إذا ولى.

– إذاً فقد أتعستك الخيبة هذه طويلاً.. أليس كذلك؟

ابتسم نضال منتصرًا:

– ليس طويلاً يا صاحبي.. فقد استطاع الأستاذ صفوت بمبضع الجراح الماهر أن يلمّ جراحي وأن يعلمني كيف أداويها.. أسعفني لأوقف نزيف الروح بكلّ إرشاداته النظرية والعملية..

– فهل تعتبر نفسك قد شفيت تمامًا؟ إنّ بصمة ماضيك مرسومة فوق ملامحك المتمردة.. بل ولعلها قد تركت لديك القناعات الرافضة لكلّ حبّ بعدها.. شفاؤك الحقيقي يبدأ حين تبدأ من جديد، حين تفتح قلبك الموصد بأقفال فولاذية للحبّ مرة أخرى.. نحن نسترد أنفسنا من ضياع العيش بمجرد أن نحبّ.

– نعم يا عزيزي.. كلامك صحيح.. ولكنه الحبّ بالمطلق.. ولو فتشت قلبي لوجدته عامرًا بكل ألوان الحبّ.

للموت حكاية.. كما للحياة

ذات صباح غائم.. وصل الخبر السيء صاعقًا إلى طارق.. لقد استشهد الأستاذ صفوت في انفجارٍ إرهابيٍ بغيضٍ في أحد الأسواق..

تحجرت عيناه برهةً قصيرةً.. ثم انتابته نوبة بكاءٍ مرير..

دفن وجهه بين يديه، لا يريد أن يرى ما يفعله البشر ببعضهم.. لماذا؟ ولصالح من يُقتل الناس الأبرياء؟ من المستفيد من اغتيال الحياة في بلادي؟

لقد رحل إلى غير عودة.. أو لعله رحل إلى آخر الزمان.. زمن الفروسية التي يتواجه فيها المتقاتلون وجهًا لوجه، في نزالٍ شريفٍ لا مكان للغدر فيه.. في ساحة للاقتتال، بعيدة عن متناول من لا يكترث بالقتال ولا يأبه به..

اليوم الإرهاب يطرق كلّ باب.. يدخل مخادعنا بلا استئذان، يسرق هناء نومنا وبساطة عيشنا.. يحمل في طريقه الأطفال والنساء والعجائز

كطوفانٍ لا يبقي ولا يذر.. يقذف بهم في مجاهل موتٍ غريبٍ أو خلف أسوار عاهة مستديمة..

الإرهاب صنيعة أعداء الحياة.. كذبًا وزورًا يتشدقون ويدّعون أنهم أنصار الحياة وحماة العيش الحر الكريم.. لقد زرعوه في كلّ مكانٍ آمنٍ.. ليغتالوا به أمننا.. في كلّ بيوت العبادة.. في مدارس العلم.. في الأسواق.. وعلى الطرقات..

لقد تفنن صنّاع الموت وتجّاره بمنتجهم البغيض.. صار يُهدى للأبرياء بصور أشياء محبّبة ربما.. قريبة التناول.. لا تخطر على بال أحد..

فخخوا السيارات، والمصاحف، وألعاب الأطفال.. بل.. ولشدة إجرامهم قد فخخوا حتى الأطفال أنفسهم ليقتلوا شرطيًا يؤدي واجبه في مكان عمله..

هذه الحرب اللعينة المفروضة هنا.. في بلادنا.. متى ستنتهي ومتى سيقرر من يديرها عن بعدٍ، أن ينهيها؟؟!!

إن الحروب لا تضع أثقالها وأوزارها إلا على كاهل الطيبين البسطاء.. ولا ترحل من مكانٍ إلا لتحط في مكان آخر.. لأنها نشاط بشري لم ولا يتوقف أبدًا منذ بدء الخليقة..

دائمًا.. وفي كل زمانٍ ومكانٍ.. هناك سببٌ وجيهٌ، بل أسبابٌ مبررةٌ للحرب..

أسبابٌ.. وأنواعٌ.. وألوانٌ.. وأشكال..

العادلة منها، تلك التي يقوم بها أصحاب الأرض في وجه من جاء يغتصبها، وأصحاب العِرض حيال من أتى لينتهكه، وأصحاب المال أمام من مدّ أذرعًا أخطبوطيةً لنهبه وسرقته.. العادلة النبيلة بالنسبة لطرفٍ ما هي الجائرة بيد الطرف الآخر، وما أكثر من يركبون موجتها! لتصبّ مصارفها في جيوبهم.. وما أكثر من ينتهزون فرصتها! لتزداد أرصدتهم في بنوك العالم، وتتلمع صورتهم على الشاشات الفضائية، يستضافون في أجنحة الفنادق الفخمة، وتفتح لهم قاعات المؤتمرات، ثم ينالون بذلك أوسمةً مزورة وشهادات شرفٍ زائف..

الأشرار يمارسونها، يفتعلونها، يختارون أمكنتها وطريقتها وتوقيتها، يخططون لها، يكتبون السيناريو والأحداث والحوار بدقةٍ متناهية، يجهزون أوراقهم فيها مرتبةً وفق خططٍ مدروسة، وكأنها لعبة.. مجرد لعبة.. يخسر فيها من لم يعرف قواعد اللعبة..

سيناريو يتكرر في كل مكانٍ يريدون إشعال نار الحرب فيه..

يجمعون قشاتٍ سريعة الاشتعال، ثم يلقون الحطب تباعًا باطرادٍ مع أحجامه المتزايدة.. يستدفئون بها حتى تحمرّ وجناتهم، وتسخن أصابعهم المقرورة..

الحطب يحترق.. وهم يختمون جلسة سمرهم حول النار بشواءٍ لذيذٍ يحتسون معه النبيذ المعتق..

قد تنتهي الحرب دون غلبة طرفٍ على آخر.. وقد يخرجون منها منتصرين، بغلبةٍ أو ربحٍ أو نجاةٍ..

لكن الحرب هي الحرب..

غولٌ حقيقيٌ.. لا خرافيٌ.. يلتهم الصغار والكبار..

تنّين واقعيٌ.. لا أسطوريٌ.. يحرق برؤوسه العديدة، الأخضر واليابس..

أين ندفن أحزاننا على عزيزٍ نفقده، أو حبّيبٍ نُفجع به؟

صار الموت حكاية كلّ يومٍ.. كما الحياة..

ما كان لدى نضال وطارق ما يتحدثون به حيال مصابهم بأمير جلسات السمو والرقي، بحكيم السمر والأوقات الرائعة، بسفير الحبّ والحياة..

اليوم هو نزيل الفراق الأبدي..

ما عادت عيونهم تملك السفر إلى جزر ملامحه المغرقة بالحبّ، ولا عادت آذانهم تترنم بسماع سمفونيات الكلام العذب الآخّاذ، لقد توقف الشلال

الهادر الذي يرسم بتساقط قطراته أجمل قوسٍ للألوان تحت ضوء الشمس..

كان يحبّ الحياة.. ويصنعها في كل من حوله..

كان حضوره الآسر يهزّ وجدان الحاضرين ويوقظ فيه التفاؤل واللهفة إلى كل ما هو جميلٌ.. حيويٌ.. وهّاج..

وبقدر طغيان حضوره، صار غيابه طاغيَ الألم.. وبحجم عطاءاته، صار فقده موجعًا أليمًا..

– رحل الأستاذ صفوت.. يا نضال.. آهٍ ما أقسى رحيله المباغت هذا..

انتفض نضال فجأة وكأنه ينبعث من تحت ركام..

– طارق.. لقد عزمت أن أكمل رسالته.. أن أكون صوته وحديثه.. البشرية تسلّم راياتها من جيلٍ لآخر.. لم تتوقف أبدًا عن فعل ذلك من عهد آدم حتى الآن.. الأنبياء.. والصالحون.. والعلماء.. وأصحاب المبادئ يتوارثون الخير والحق والعمل النافع..

علّق طارق بأسى:

– كما يتوارثون الشر والباطل والإجرام.

– سنكون معًا صناع الحياة، وحمائم السلام، ودعاة الخير والحبّ والرحمة.. مهما كبر حجم الإرهاب والشر.. سنشعل شموع الهدى في ظلمات فكرهم الأسود.

عندما تتصرف الأقدار

سارع الصديق الصدوق إلى تؤءم روحه ورفيق عمره، يطمئن عليه ويشد أزره..

– ما الذي فعلته البارحة يا طارق؟؟ لقد أخبرتني والدتك أنك كنت في حالة قريبة من الانهيار.. أخبرني ما الذي حصل؟

– قبل أيامٍ عدة.. عرفت نبأ زواج رؤى..

– رؤاك؟؟؟

– لم تعد.. لم تعد كذلك يا نضال..

– كيف؟ متى تمّ هذا الأمر؟ ما الحكاية؟ أخبرني.

– حين علمت بزواجها وموعد سفرها.. انهارت كل أحلامي، توقف الزمن عن الجريان، فقدت نبضي، وقدرتي على التنفس..

لقد امتلأتُ بذلك الحبّ حتى غُمرتْ كلّ خلاياي به.. عشته مع كلّ خفقةٍ.. مع كلّ شهيق وزفير.. مع كلّ رفة هدب..

ماذا أفعل..؟ لقد خطبها رجلٌ ثريٌ جدًا، بالغ الثراء، من أقربائها، وكان مجرد المقارنة بيننا أمر يدعو للسخرية تمامًا، وأنت تعرف قلة ذات يدي.

– أعرف أنك في حاجةٍ للكثير والكثير من المال.. فالحبّ الصادق وحده لا يكفي.. الحبّ وحده مطية عاجزة للوصول إلى من تحبّ.

– فعلاً ما أمرّ هذا.. يحبّ الأغنياء بصدقٍ أو بدون صدق، ثم لا يكلّفهم الأمر غير أن يمدّوا أيديهم لينالوا ما أرادوا.. بطريقةٍ أو بأخرى.

– هكذا هي الحياة..

– لقد انطلقتُ في سباقٍ مع الزمن.. كنت أعدو بطريقة جنونية لأصل قبل انطلاق الحافلة التي تقلّها إلى عالمٍ آخر بعيدٍ.. أردت أن أراها للمرة الأخيرة.. أن أودعها الوداع الأخير..

– لمَ؟ إلى أين رحلتْ؟

– رحلت مع زوجها إلى بلد آخر..

تمّ الأمر على وجه السرعة، لم يكن هناك وقتٌ للاستدراك، أو لفعل أيّ شيءٍ.. لا لم يكن هناك مجالٌ لأي تصرف.. أنا عشت الحبّ وحدي.. بيني وبين نفسي.. وكنت أتحين الفرص للاعتراف به وتقديمه لها.. لعلي

التزمت الصمت أكثر مما ينبغي.. لعلي أطلت الوقوف على عتبة اتخاذ القرار.. لعلي لم أحسب حساب عروض منافسة أخرى.. لعلي وثقت أكثر مما ينبغي.. لعلي..

– هوّن عليك يا صديقي.. فللأقدار تصريفها وحكمتها، يقول القدر كلمته غير آبهٍ بنا، أو مكترث، يعلن حكمه آخر الأمر دون مراعاة مشاعرنا أو مراداتنا.. هو من يختار أخيرًا.. دون أخذ موافقتنا.. هو من يقرر ما سيكون، وما ينبغي.. وعلينا السمع والطاعة.

– نعم.. نعم.. أعلم.. .. .. بعد سفرها أدركت أنني أهوي إلى قعر لحظةٍ تشبه لحظة الاحتضار، لحظةٍ قررتُ فيها أن أختصر المسافات إلى النهاية.. بدأت التعود على زمنٍ لا أحبّها فيه، وعلى غيابٍ نهائيٍّ يقتلع وجودها من جذوره ليرميه على قارعة الماضي هشيمًا يذروه النسيان.. وهكذا.. وإمعانًا في معاقرة الاحتضار، بترتُ أيّ بادرة إلى تذكرها، ونسفت أيّ جسرٍ يعبر إلى ضفافها، واستبدلت بياناتها الشخصية بملامح سريالية لتمثالٍ أَشْوَه.. لقد اتخذت القرار بأن ألغيها من حياتي، دون أن يعنيني ما يكون في داخلي من ضرام مستعر.. لا كره يقودني، ولا حبّ يستبقيني، ولا إشفاق أو رجاء أو ترقّب يعتمل في داخلي.

رفع نضال يدًا حنونًا إلى كاهل صديقه المكدود.. وشده إلى صدره بعنفوان الصداقة والأخوة وقال له:

– هكذا يعصف الحبّ بالوجدان.. هكذا هو..

عصفٌ في أوله، يحمل القلب إلى مجاهل عبقريةِ الحسن، علوية المثال، تمنحه جناحين ذهبيين رائعين، وتمكّنه من التحليق في فضاءات الوجد الصارخ..

وعصفٌ بآخره يقذف بك في هوّة الاحتضار على مذبح الرقّ والقلق والأرق..

هكذا.. يظلّ الحبّ يعصف ما بين أوله وآخره كل آنٍ، ليغيّر مشاهد العيش باستمرار، وليجدّد ألوان لوحة الحياة عند كلّ شروقٍ.. ينحدر مع الساعات والثواني إلى غروبٍ ساحر متفرّد، يُكسب الحالات والمواقف رونقًا مميّزًا يتأرجح بين الدفء اللذيذ ولسعة البرد.

– سأكون على ما يرام.. لا تخف علي يا صديقي.. سأكون أقوى من صدمتي.. ستجدني متماسكًا واعيًا لقدر الحزن، لا أمنحه أكبر مما يستحق، ولا أمكّنه من سحق ذاتي وأعصابي..

حين نتعلم كيف نعطي للأحداث حجمها الحقيقي.. لا أقلّ ولا أكثر.. نبدأ بامتلاك مهارة التغيير..

لا بأس أن نعتبر من الأحداث التي مرّت، وأن نتعلم منها الدرس سريعًا، لا أن نقف هناك.. دون حراك..

سأتخلّص من أصفاد الجراح، وقيود الذكريات، فالنبش في الماضي خبلٌ.. واجترار آلامه نوعٌ من المازوخية التي تتقن فن جلد الذات وتعذيبها..

أنا لن أستنزف طاقة العمر النبيل على شفا جرحٍ غائر.. والبكاء على الأطلال لا يعيد مفقودًا، ولا يردّ غائبًا، ولا يلغي فراقًا..

التفاتةٌ صغيرة تكفي..

التفاتةٌ واعية بما يكفي لتضميد جراح الماضي، ولإقفال سجلاته الشائكة المفتوحة..

وعملاً بمقولة " لا تستطيع أن تقفز إلا برجوعك خطوة إلى الوراء ".. ستكون الخطوة بحجم الوثبة..

لا بأس أن نتذاكى.. فنغيّر اتجاه البوصلة، ونتخذ من المرونة أسلوبًا لصدّ هجمات الأتراح..

من الحكماء نتعلم " لو اعتبرت بما مضى حفظت ما بقي "..

لذا أنا أعدك أن تجدني معافى..

أطرق أبواب الحياة بعنفوان القوي الذي لا تكسره الأحزان، ولا يعجزه الفقد..

أعدك أن أكون من جديدٍ رجلاً يعرف كيف يحبّ، وكيف يحافظ على حبّه، وكيف يعيشه واقعًا حقيقيًا لا خياليًا..

أعدك أن أتعلم كيف ترتسم الخطا على دروب الحياة واثقةً مطمئنة.. راضية.

***** تمت *****

إبحارٌ صغير..

فيما بعد الحكاية

رسالة حبّ لابدّ منها..

بين الحين والآخر أحسّ بك.. أحسّ بوجود طيفك يحوم حولي، يحنو عليّ بما عهدته منك من رقّة وحنوٍّ ودفء..

أيها الطيف.. ما أسميك.. وأنت القريب البعيد..

أيها الطيف.. ماذا أسميك.. يا من منحت قلبي الحنان والاهتمام، وأحطت دنياي بالرقة والسلام..

هل تبلغك نجواي؟ فتحسّها، وتشعر بلهفة قلبٍ اعتادك اعتيادًا يوميًا رائعًا.. أو أن الفراق قد رفع الأسوار عاليةً بيننا..

أيها الطيف تزورني، فأكاد أسمع صوتك في صوتٍ شبيهٍ يغزو مسامعي ويطرق جدران قلبي.. وتنحدر دمعة صامتة تحمل في ذراتها كل الحبّ الصادق لك..

لقد انتزعتك الأقدار من شراييني انتزاعًا مرّاً، لتترك في عينيّ دموعًا عالقةً تحت الجفن تناجيك آنًا فآن..

أنا أبكيك يا صاحبي.. كلما مرّ طيفك..

أبكيك وأستمطر لك خيرًا عميمًا من ربٍّ كريمٍ، فأدعو الله أن يكرمك كرمًا عظيمًا إن كنت حيًّا ترزق، أو أن يرحمك رحمة واسعةً إن كنت ميتًا..

أيها الطيف..

لك مني السلام..

المؤلفة في سطور:

يمان عبد الحميد ياسرجي – مهندسة معمارية – صدر لها :

- عقد الياسمين / مجموعة قصصية /
- فسيفساء في خزينة الذات / وجدانيات وقصائد /
- لغز المحال / وجدانيات وقصائد /
- كن رائع الجمال / مقالات قصصية /
- جحا يزور التليتبيز / مسرحية للأطفال /
- كانوا أطفالاً مثلكم / قصص للناشئة /
- بصمات / مقالات قصصية /
- المفكرون الصغار / مسرحية للأطفال /
- حكايات للجيل القادم / قصص للناشئة /
- قلمٌ يكتب الحب / مقالات قصصية /
- في حضرة الوطن / وجدانيات وقصائد /
- كمَثَل حبة / تأملات فكرية /
- إيقاعاتٌ ملوّنة /قصص ومقولات قصيرة جدًّا /
- سياحة خاصة مع الحيوان في القرآن /
- عندما يعصف الحبّ / رواية /

سيصدر لها:- حروبٌ على تخوم الروح / تأمّلات فكرية /

- أيام الفتى عربي / مسرحية للأطفال /
- أناشيد الفتى عربي / أناشيد للأطفال /
- أبوح ولا أبوح / وجدانيات وقصائد /